I B R A H I M   A L - K O N I

رواية
NOVEL

إبراهيم الكوني

رسول السماوات السبع







إبراهيم الكوني

رسول السماوات السبع



رَسُولُ السَمَاوَاتِ السبْع

رسول السموات السبع / رواية عربيّة
إبراهيم الكوني / مؤلّف من ليبيا
الطبعة الأولى ، 2009



المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :
بيروت ، الصنايع ، بناية عيد بن سالم ،
ص. ب :5460-11 ، العنوان البرقي : موكيّالي ،
هاتفاكس : 751438 / 752308
التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
عمّان ، ص. ب : 9157 ، هاتف : 5605432 ، هاتفاكس : 5685501
e-mail : info@airpbooks.com
موقع الدار الألكترونيّ : www.airpbooks.com
تصميم الغلاف والإشراف الفنّي :

خطوط الغلاف : **زهير أبو شايب / عمّان**
الصفّ الضوئيّ : **رشاد برس**
التنفيذالطباعيّ : **رشاد برس / بيروت ، لبنان**

(ردمك) ISBN 978-9953-36-347-1

إلى روح خليل آمغار:

الإنسان الذي رحل عن دنيانا بالأمس باغترابه عن الذاكرة، قبل أن يرحل عنّا اليوم بالجسد.

لقد كان لي في الطفولة أباً ثانياً،

قبل أن تكشف لي وصايا الناموس الضائع

أن الأوائل نصّبوا شقيق الأمّ أباً أوّل.

«هذا الجيل من الآدميين هم سكّان المغرب القديم، ملأوا البسائط والجبال من تلوله وأريافه وضواحيه وأمصاره، يتخذون البيوت من الحجارة والطين ومن الخوص والشجر، ومن الشعر والوبر، ويظعن أهل العزّ منهم والغلبة لانتجاع المراعي، فيما قرب من الرحلة، لا يجاوزون فيها الريف إلى الصحراء والقفر الأملس. ومكاسبهم الشّاء والبقر والخيل في الغالب للركوب والنتاج، وربّما كانت الإبل من مكاسب أهل النجعة منهم شأن العرب، ومعاش المستضعفين منهم بالفلح ودواجن السّائمة، ومعاش المعتزّين أهل الانتجاع والأظعان في نتاج الإبل وظلال الرماح وقطع السابلة (. . .) وأمّا شعوب هذا الجيل وبطونهم فإنّ علماء النسب متّفقون على أنّهم يجمعهم جذمان عظيمان وهما: برنس ومازيغيس. ويلقّب مازيغيس بالأبتر، فلذلك يقال لشعوبه البُتْر».

ابن خلدون

«العبر وديوان المبتدأ والخبر

في أيام العرب والعجم والبربر»

«أأنتَ عبد؟

إذاً أنت لا تنفع صديقاً!

أأنتَ طاغية؟

إذاً أنت لا تنفع أن يكون لك أصدقاء!»

ف. نيتشه

«هكذا تكلّم زرادشت»

1

استيقظ مزّار من نومة هبوع فوجد القيد في يديه. اعتدل في جلسته ثمّ تأمّل قيد المسد مليّاً. انكبّ على القيد صامتاً قبل أن يشيّع يديه المشدودتين بالوثاق الكريه في الهواء ليتبيّن القيد، ولكن بصره استقرّ على الشبح المغمور بأضواء الغسق المنتصب في الواجهة. تطلّع إليه بفضول. ثم باستفهام، قبل أن ترتسم على شفتيه بسمة بلهاء. ولكن الشبح لم يستجب لا للفضول، ولا للاستفهام، ولا للبسمة البلهاء، فهيمن صمت. هيمن الصمت إلى أن تساءل الأسير:

ـ إنس أم جنّ؟

شبح الغسق لم يجب فهوى الأسير بيديه المكبلتين في حجره قبل أن يتساءل بنبرة عبّرت عن خيبة الأمل:

ـ هل هذه مزحة؟

سدّد الشبح نحوه نظرة استخفاف، ثم هاجر ببصره إلى البعد باستكبار قبل أن يجيب بصوت مريب:

ـ كلاّ! هذه ليست مزحة!

اختلس إليه الأسير نظرة دهشة، غمغم:

ـ ظننته حلماً!

جعجع صدر الشبح بحشرجة كالضحك المكتوم قبل أن يقول:

ـ تحسن بي الظنّ كثيراً إذْ تحسب الأمر حلماً!

استفهم الأسير بدهشة:

ـ ماذا؟

ـ أردت أن أقول أن الأحرى بك أن تحسبه كابوساً لا حلماً!

حدّق الأسير في جلاّده طويلاً، ثمّ تمتم:

ـ الحقّ أني لا أفهم.

تنازل الشبح عن استكباره فانحنى نحو أسيره ليقول بصوت بحيح:

ـ أردت أن أقول أنّك منذ الآن أنت أسيري!

أفلتت من فم الأسير ضحكة، ولكنه قطعها فجأة ليستفهم:

ـ أسيرك؟

هزّ الشبح عمامته الكئيبة دون أن ينبس، فعاد الأسير الشقيّ يسأل:

ـ بأي جرم؟

تجاهل الشبح السؤال ليتطلع إلى الأفق البعيد. قال من عليائه:

ـ أن تجد نفسك أسيراً يعني أن تفقد حقّك في هذه الأرض السخيّة بزرعها ودوابها وكنوزها وخدمها وحشمها وكلّ ما سكن جوفها ودبّ على سطحها.

تطلّع إليه الأسير بذهول. ولكنه ما لبث أن استدرك ليستبدل الذهول ببسمة استهزاء. سأل:

ـ هل أنت مجنون؟

هيمن سكوت مميت. في الغرب، وراء السيوف الرملية التي تتقاطع في الأفق، بدأ المعبود القديم في ممارسة مراسم احتضاره الخالد، فغمر الدنيا بفيوض الشعاع الدامي. على عمامة الشبح العامرة سكب المعبود نصيباً من الشعاع المخضّب بلون الدّم فارتجّ الأسير البائس برجفة. لحظتها رفع نحو جلاّده اليدين المغلولتين بحبل المسد ليتوسّل:

ـ أطلق سراحي!

ظلّت اليدان معلّقتان في الهواء. أمّا نبرة الاستجداء فكانت من السذاجة بحيث استثارت الندم في قلب السائل، ولكنه لم يجد الحيلة للتكفير عن الزلّة؛ لأن الشفقة هو ما حاول أن يجتنبه دوماً. وبرغم ذلك فإنه لم يسحب يديه ليعيدهما إلى

حضنه. لم يعدهما دون أن يدري لماذا. وها هو شبح المجهول الملفوف بالسواد يدس يده في جيب جلبابه ليستخرج نصلاً. لوّح بالنصل في الهواء فالتقمته ألسنة الشعاع الظمأى لترويه بفيوضها الدموية. سأل بلهجة تهكّم لم يدرك الأسير حقيقتها إلا تالياً:

- هل تريد حقاً أن أحرّر يديك من القيد؟

أجاب الأسير بلهفة لم يبذل جهداً لإخفائها:

- بالطبع!

أومأ له أن يدفع بيديه إلى الأمام موحياً بعدم نيّته في بذل عناء الانحناء إليه، فما كان من الأسير إلا أن هبّ ليزحف نحوه على ركبتيه رافعاً يديه في الهواء. ساد سكون الغروب، ولكن نصل المدية الشرسة لم يتنزّل ليقطع قيد المسد، لأن النصل الشّره واصل رقصته الوحشية في الفضاء المغمور بفيوض الشعاع الدّامي كأنه يؤدّي طقساً مجهولاً تمهيداً لتسديد الدّيْن المجهول.

تابع الأسير رحلة النّصل الملوّث بلون الدّم وهو يتلوّى في الفضاء. تابع الرحلة الشقيّة دون أن يعرف لماذا خامره قلق. خامره القلق فتهيّأ لسحب يديه المعقودتين في وجه الرجل المشؤوم، ولكن بعد فوات الأوان؛ لأن النصل ما لبث أن هَوَى بوحشية لا ليقطع قيد المسد، ولكن ليبتر أصابع الأسير!

2

عندما استيقظ من هبوعٍ آخر وجد نفسه مطروحاً في دهليز ملفوفٍ بالظلمات، تجوس حوله دواب مريبة ناعمة الأجرام كأنّها الأرانب. في قلب الدهليز بقعة ضوء ضئيلة، مستديرة، تسقط من كوّة في السقف. في دائرة الضوء تبين قطع البَعَر فأيقن بنزوله ضيفاً على مملكة المخلوقات المشئومة الملقّبة في لسان القوم بإسم الأرانب. داهمته موجة غثيان فأغمض عينيه، ولكن رائحة فضول كائنات النحوس ما لبثت أن غزت أنفه لتضاعف إحساسه بالغثيان. حاول أن يتقيّأ ليغالب الغثيان الذي انقلب دواراً، ولكن الأمعاء الخاوية لم تلفظ شيئاً. اكتشف أن جسمه كان يتزعزع بالحمى طوال الوقت. صداع لجوج أيضاً ينضمّ للبليّة فيقرع جمجمة الرأس. في الكفّ اليسرى يسري وجع لا يطاق. تحسّس الكفّ اليسرى باليد اليمنى فوجدها ملفوفةً برباط. لحظتها فقط أدرك أن ما حدث البارحة، (ربّما قبل البارحة، لم يكن كابوساً. لحظتها فقط أيقن أن لقاء الجنون لم يكن وهماً ولا أضغاث أحلام. عاد يعوي بصوتٍ منكر

محاولاً أن يتحرّر من الغصّة التي تسدّ بلعومه وتخنق في صدره الأنفاس. ولكن هيهات! عليه أن يعوي ويعوي ويعوي ليتيقّن في نهاية المطاف بأن سبب الغصّة التي تخنق في صدره الأنفاس ليس جرماً غريباً يمكن أن يلفظه الجسد، ولكنه جنسٌ من غضب. جنسٌ من اشمئزاز. جنسٌ من كفرٍ بمشيئة القدر. وإلاّ فما معنى أن يصحو المخلوق من هجعةٍ ليجد نفسه يرسف في الأغلال؟ ما معنى أن يسمع من فم ماردِ المنكر الذي يقول أن أرضه وعرضه وكل ما ملكت يده قد صودر في غمضة عين لا لشيء إلا لأن القدر الذي سخّره هو الذي أراد؟ ما معنى أن يجد المخلوق نفسه مبتور الأصابع لا لذنب إلاّ لأنه طالب بتحرير يديه من الغلّ البليد؟

من عينيه فزّ دمع. في صدره تلاحقت الأنفاس. أمّا البدن فمضى يشتعل بالحمّى مستجيباً لوجع البتر في أصابع اليد اليسرى. ولكن السّعار الذي تلظّى في القلب جَبَّ كل الأوجاع. سعار أَجَّجهُ السؤال الذي لم يجد له جواباً: لماذا؟

الأدْهَى من كلّ هذا هو ما حدث بعد بتر الأصابع. فقد ارتجّ من هول الواقعة فانكفأ على اليدين المقيّدتين الملوّثتين بنزيف الدم وشرع يرتجف ويتلوّى. وعندما رفع رأسه لأوّل مرّة وجد أحد أعوانه واقفاً فوق رأسه. انتظر أن يهرع لنجدته، ولكن الرجل تبدّى لا مبالياً كأنّه غير معنيّ بالمصاب الذي حاق بربّ

نعمته. والأسوأ من هذا الانطباع هو ما تلا هذه الوقفة المشبوهة. فقد لمح في ذروة انهمامه بالوجع كيف انحنى الرجل فوقه ليدسّ في فمه عقاراً لزجاً استجابةً لإيماءة من جلاّد المجهول. فعل ذلك بتلك الروح التي عرفها في الخدم إذا أرادوا أن يرضوا أسيادهم. فعل ذلك بروح العبودية. كأنّ الوضيع يتعمّد بعمله أن يترجم له حقيقة وضعه. كأنّه بتفانيه في تلبية نداء الداهية يتباهى بخيانته. كأنه ينعي له نهاية عهد وبداية عهد غير عهده. أفلا يحقّ لإنسانٍ وجد نفسه يحيا أحجيةً كهذه الأحجية أن يرتمي في أحضان الغيبوبة ارتماءً؟ ألا تنقلب الغيوب، في هذه الحال، خلاصاً بعد أن كانت في العُرف السائد قصاصاً؟

3

حول كوّة السقف تزحزح طوق سخيّ فتدفّق الضياء في الحضيض. حدث ذلك مراراً، بل مرّتين: مرّة عندما شاء صاحب اللاأحفورة أن يطعم مخلوقاته المشؤومة، ومرّة عندما شاء صاحب الشأن أن يطعمه هو. كان يسحب الطوق المدوّر الذي يحيط بفوهة الكوّة في كلّ مرّة ليرمي بربطة البرسيم الأخضر، أو ليلقي له برغيف الخبز وزمزمية الماء. كان يبتسم برغم الحمّى وبرغم البؤس، لأنه تذكّر كيف حاول الوصيّ على الحقول أن يقنعه مرّة بالربح الذي يمكن أن يجنيه من تربية الأرانب، فما كان منه إلا أن انتهره بحزم مذكّراً بوصايا الأسلاف التي حرّمت كل ما يمتّ بصلة لدواب النحوس هذه، لأنها العدوّ الذي بشّر السلف الأوّل بالموت. ولكن اللئيم عرف كيف يستغفله ليحفر هذه الهاوية خفيةً ليربّي فيها سلالة النحوس. وها هو يشاطر أرذل الحيوانات سكنها ليكتشف أنّها جليسه الوحيد في عزلته إلى جانب الصمت. فالصمت أيضاً جليس لأن الصمت يحدّثه بلغته التي اغترب عنها ببلبلة دنياه.

الصمت يحدّثه بلغة أفكاره التي لا يجد الآن سواها. الصمت يحدّثه بلغة الضمير. الصمت يخاطبه بلغة الضمير المنسي. الصمت يحاوره بلغة الضمير المغترب.

بلى! السجن أنسب الأمكنة للحساب، لأن عزلة السجون توقظ اللغز المبعد لتستعيد الصوت المغترب، مما يعني أن المخلوق يتحرّر بوجوده في السجن لا بخروجه من السجن. السجن، إذاً، حريّة، والتّبهنس بلا قيد أو شرط هو الأسر، هو العبودية!

تكرّر زحزحة الطوق وإسقاط القوت أيّاماً أُخر. وفي أحد الأيام تزحزح الطوق ليسقط من علٍّ سلّم خشبيّ. كان يتفقّد جراح الأصابع المبتورة عندما سقط السلّم بجواره. تطلّع إلى الأعلى فرأى، في الضوء، شبح السجّان منكفئاً برأسه عبر الفوهة. حدّق محاولاً أن يتبيّنه في عتمة الدهليز، وعندما تبيّنه أومأ له بالخروج دون أن ينبس. زحف مزّار نحو السلّم. تعلّق بعيدان الخشب وبدأ يصعد نحو دائرة الضوء. بلغ الفوهة فانتظر أن يهرع السجّان لمعاونته على الخلاص من شَرَك الهاوية، ولكن السجّان لم يفعل. صلب يديه حول صدره وشرع يرنو إلى الأفق البعيد المشرف على الحقول المستورة بغابات النخيل على وجهه استنزل قناعاً أنكره مزّار الذي وقف في وجهه وخاطبه ببلاهة:

ـ ظننتك البستاني المدعو أسوف، أم أنني أخطأت؟

حدجه السجّان بغموض، ولكنه بدل أن يجيب لوّح بيده في الهواء مشيراً إلى طريق الغرب:

ـ أُمِرتُ أن أريك السبيل الذي عليك أن تسلكه إذا شئت أن تستبدل المعتقل مقابل الحرية!

تفحّصه مزّار لحظات. سأل:

ـ هل يريد المولى الجديد أن ينفيني نحو الغرب؟

هزّ السجّان رأسه علامة الإيجاب، ثم عاد يسدل قناع الإنكار على وجهه فسأل مزّار بلهجة استجداء:

ـ ألا يمكنني أن ألقي نظرة على بيتي؟

حدجه السجّان باستنكار. في ومضة تحوّل الاستنكار في عينيه استخفافاً. زأر:

ـ يبدو أنّك لم تدرك بعد حقيقة ما حدث!

قال مزّار:

ـ لا أخالك تجهل ما حدث أيضاً!

سكت ثم أضاف:

ـ ما حدث كان مزحة منكرة حتى لا أقول أنها مكيدة شريرة، وإلاّ ما معنى أن يتعرّض صاحب الملك لعدوانٍ تُبتر فيه يده ويُلقى في زريبة المخلوقات الملعونة التي لا تُسمّى ولا تذكر دون ذنب؟

تطلّع إليه السجّان بسخرية. غمغم بلا مبالاة:

- دائماً ثمّة ذنب؟

احتجّ مزّار:

- هل اقترفت ذنباً في حقّ أحد؟ هل فعلت ذنباً في حقّك أو في حقّ أحد في هذا المُلك؟ ألم أُدِرْ شؤون هذه الأرض بالعدل؟ ألم أعمل على الاقتصاص من الظالم إنصافاً للمظلوم؟

تابعه السجّان باستغراب. قال أخيراً:

- الواضح أنّك تحسن الظنّ كثيراً بالمماليك إذا كنت تحسب أنّك حكمت بين الناس بالعدل.

سكت لحظة. أضاف:

- ألا ترى أن حسن الظنّ في هذه الحال هو في ذاته خطيئة؟!

تطلّع إليه مزّار بدهشة. تمتم:

- هل تظنّ أن القوم يسيئون بي الظنون حقّاً؟

أطلق السجّان ضحكة قبل أن يجيب:

- إذا كنتَ ما زلت تشكّ في سوء ظنّ القوم بك فأنت لست واهماً وحسب، ولكنّك أعمى وفوق ذلك أصمّ أيضاً!

عاد يتضاحك استخفافاً قبل أن يضيف:

ـ يبدو أن العماء والصمم والعيش في الأوهام هي خصال كل من ابتلاه الخفاء بتولّي أمر الناس!

لوّح بيده نحو الغرب مرّة أخرى وصاح بلهجة وعيد:

ـ امْضِ! امْضِ! أفضل ما تفعله بما تبقّى لك من أيام هو أن تمضي دون أن تلتفت إلى الوراء!

عاد مزّار يستجدي:

ـ ولكن إذا كان سيد الملك الجديد يريدني أن أتخلّى له عن ملكي، فكيف يريدني أن أتخلّى له عن عيالي؟!

استنكر السجّان:

ـ عيالك؟

تطلّع إلى البُعْد قبل أن يضيف:

ـ اعلم إذاً أن لا عيال لمغلوب!

ـ لا عيال لمغلوب؟

ـ للمغلوب لا حقّ، ولا أمل، ولا خلّ، ولا عيال!

حاجج مزّار بعناد طفل شقيّ:

ـ ولكنك تعلم أنّي تركت في البيت امرأة، كما تركت إلى جانب المرأة ابناً أنجبته من بطن تلك المرأة!

قهقه الرجل بوحشيّة. عاد يصلب يديه حول صدره باستكبار. قال بجفاء:

ـ ها أنت تقدّم البرهان على أن أصحاب الملك ليسوا عمياناً فحسب، ولكنّهم بلهاء أيضاً. ألا تدري أن المرأة لا تحبّ الرجل الذي تدّعي أنها تحبّ، ولكنّها تحبّ الرجل الذي غلب؟ ألا تدري أيضاً أن الابن لم يكن يوماً ولن يكون يوماً ابناً لأب، ولكنه ابن الأمّ لأنها هي التي كوته بنار جوفها حتى نضج، ثمّ حصّنته بدفء حضنها حتى وعى. فكيف لا تريده أن ينكر الأب كما أنكرته أمّه التي تراهن على وفائها؟!

ترنّح مزّار بسبب الدوار. عاوده الإحساس بالغثيان فأغمض عينيه وتحسّس رأسه بيده المبتورة الأصابع. تمتم:

ـ تتحدّث عن الغلبة كأن مولاك صرعني في مبارزة!

رفع رأسه نحو سجّانه ليسأل بلهجة تحدٍّ:

ـ لماذا لا تسمّي الأشياء بأسمائها فتقول أنه استغفلني بدل أن تردّد أنه غلبني؟!

أجاب السجّان ببرود:

ـ ألم نرث في ناموس الأسلاف بأن الحرب خدعة؟

ـ وهل يبيح ناموس الخدعة الاستيلاء على الأرض وعلى العِرض؟

ـ لا يجب أن تطمح بالنزاهة في حرب ناموسها الخدعة. فإذا امتلك صاحب الخدعة الأرض امتلك كلّ ما دبّ على هذه الأرض. هذا عرف الأجيال!

عاد مزّار يتحدّى:

ـ لا يستطيع مغامر لفظته الآفاق أن يستولي على أرضٍ ورثتها عن أسلافي وأسلاف أسلافي!

تهكّم السجّان:

ـ ورثتها عن أسلافك؟

زفر أنفاس الضيق ليضيف:

ـ لسنا نحن من يرث الأرض، ولكن الأرض هي التي ترثنا!

ـ الأرض هي التي ترثنا؟

ـ الأرض هي التي ترثنا لا نحن من يرثها، لأننا لسنا نحن من يملك الأرض، ولكن الأرض هي التي تملكنا!

سكت مزّار. برطم لنفسه:

ـ عشتُ حتّى وقفت أمام البستانيّ لكي يلقنني درساً في حقيقة الأرض!

صلب السجّان يديه حول صدره مرّة أخرى. شيّع رأسه إلى الأفق. قال:

ـ لم أعمل في بستانك يوماً واحداً!

هرش مزّار رأسه. سأل:

ـ من أنت إذاً؟

سأل السجّان بدوره:

ـ من يعطي لنفسه الحقّ في التحدّث عن حقيقة الأرض؟ هل يستطيع بستانيّ مملوك بالأرض أن يتحدّث عن حقيقة الأرض؟

سكت قليلاً. أجاب:

ـ كلاّ بالطبع!

فسأل مزّار:

ـ هل أنت سائس الخيل؟ أم أنّك راعي المهاري؟

ساد صمت فتساءل مزّار:

ـ أيعقل أن يأتيني سائس خيلي، أو راعي جمالي، دليلاً يقود الغزاة؟

ابتسم السجّان باستهزاء قبل أن يقول:

ـ عسير على صاحب الجمال أو سائس الخيل أن يخون طبعه فيُدخل الأعداء إلى حرم المولى، ولكن الخيانة من شيم من يؤتمن على السرّ!

ـ ماذا تريد أن تقول؟

ـ أردت أن أقول ما قاله الأوائل عن الأخلاء!

انتظر مزّار لحظة، ثمّ تساءل:

ـ ماذا يقول الأوائل عن الأخلاّء؟

ـ الأوائل يقولون أن عليك أن تحصر عدد الأخلاّء ثم تضيف إليهم عدد الأعداء إذا شئت أن تعرف مجموع الأعداء!

ـ هل تريد أن تقول أن الأخلاّء هم الذين باعوني؟

ـ ومن غير الأخلاّء أحقّ بالبيع؟

هيمن الصمت. انتصف النهار. اشتدّ الحرّ. لوّح السجّان بيده مشيراً إلى السبيل نحو الغرب. توسّل مزّار:

ـ ألن أطمع في أن ألقي على العيال نظرة؟

هزّ السجّان رأسه نفياً فطأطأ مزّار. تردّد لحظات قبل أن ينطلق في طريق الغرب منكّس الرأس.

4

في الطريق نحو الغرب خاض في نعيم الأرض المغتصبة التي كانت بالأمس أرضه. عبر حقول الزروع المحروثة بجداول تضيق بالسلسبيل المشوب باللون الأخضر حيناً، وباللون الذهبي حيناً آخر، وباللون الذي لا لون له لأنه اللغز الذي يحوي كل الألوان إذا لم تضلّله النبوت التي يستعير في مسيرته ألوانها. هذه الأخاديد المتعرّجة النابعة من مجاهل الجنوب هي أعجوبة البريّة التي حوّلت الحضيض الصحراوي القاحل فردوساً أخضر حقَّ له أن يتباهى بامتلاكه أمام الأغيار كتميمةٍ مقدّسةٍ توارثها الأخلاف عن الأسلاف عبر أجيالٍ وأجيال.

حقول الزروع تخلّلتها صفوف ملتوية من أشجار النخيل المثقلة بعراجين البلح الذهبية، تليها مساحات محتلّة بأندر أجناس الشجر المثمر الذي عرفته مملكة العراء في تاريخها الطويل المجبول بالشقاء والحرمان كالرمّان والتّين والبرقوق. في المسافات الشاسعة الممتدّة ناحية الجنوب والجنوب الغربي

استلقت الأراضي المفروشة بمحاصيل الحبوب التي كان سخاء منتوجها سبباً في ذيوع صيت الواحة فحقَّ لأجيال الأوائل أن يطلقوا عليها اسم «تيرا» (التي تعني في لغة الأقدمين «التميمة» تيمّناً بجودها الذي أطعم القبائل من جوع وآمنها من خوف.

من ناحية الشمال انطلق طوق ملفّق من شجرٍ عقيم، مضى كثيفاً، ملتفّاً، في سلسلة تستدير لترسم حد المول من جهتيه الشمالية والغربية إلى أن تستكمل كيان الحصن الحصين في التفافها المتاخم للسيوف الرملية المشرفة من جهة الجنوب الشرقي على اللقية النفيسة التي يحتضنها الحضيض: هناك، في برزخ يتوسّط الحدّ الفاصل بين أطراف المُلْك الغربية في لقائها مع أطرافه الجنوبية، تومض مياه بحيرةٍ حقيقية زرقاء تتبدّى في هجعتها في ذلك الركن المهدّد بالوقوع غنيمةً في جوف الفناء الأبديّ العاريّ، كأنّها جوهرة هائلة سقطت من السّماء!

هذا كان حتّى الأمس القريب فردوسه. ولكنه اليوم فردوسه المفقود؛ ولذلك فهو فردوس حقيقي، كما لم يكنه بالأمس، لأنه صار قيد الفَقْد.

5

لم يكد ينتهي من اجتياز آخر جدول في الطريق المؤدّي إلى حاجز الأشجار حتى انتبه لوجود بضعة أشباح تسعى في أثره: أولئك كانوا خدماً يقومون بدور العسس أطلقهم السجّان وراءه ليتيقّن من خروجه إلى طريق الغرب. كانوا يجدّون السير خلفه إذا أسرع الخُطى، ولكنّهم يتباطأون أيضاً إذا تباطأ. تحت ظلال سرب النخيل توقّف ليلتقط رطباً أسقطه الريح من العراجين. احتضن في طرف جلبابه حفنتين من التمر ليتخذ اللقية زاداً؛ بل ليتخذ اللقية بُلغةً يتقوّت بها لأنه تذكّر أنه لم يذق طعماً لطعام منذ يومين: ذلك أن آخر رغيفين تلقّاهما من كوّة سجنه لم يكونا رغيفي خبزٍ، ولكنّهما قطعتا حجرٍ من فرط تصلّبهما، فما كان منه إلاّ أن رمى بهما إلى الأرانب.

التفت ليتفقّد أشباح العسس فإذا بهم يتحلّقون بالقرب ليتبادلوا المشاورات همساً. ولكنه أحسّ نحوهم بالامتنان لأنّهم لم يمنعوه التقاط الرطب الذي طرحته الريح أرضاً.

دبّ إلى الأمام.

تراجع هجير الخريف فهسْهَسَت الريح في قمم الأشجار مستبدلاً أنفاس الجنوب بأنسام الغرب. تحوّل وجهة الريح من الجنوب إلى الشمال لا بدّ أن تمرّ عبر الغرب لالتقاط الأنفاس مثلها مثل قوافل التجّار التي لا تنتقل إلى الشمال في طريقها من أوطان الجنوب دون أن تمرّ بواحة «تيرا» للتزوّد بحاجتها من المؤونة والمياه. الريح أيضاً تتزوّد بحاجتها من المؤونة والمياه كقوافل التجّار، لأنها أيضاً رسول راحل. اجتاز أحراش النخيل ففزّ من حوله بعض الفلاحين، الذين استقلوا هناك لقضاء القيلولة. فرّوا يمنةً ويسرةً كما يفرّ الطير أو الحيوانات البريّة التي ترد بحيرة الواحة للارتواء. فرّوا كأنّهم يفرّون من مخلوق موبوء. فرّوا لا إكباراً لشخصه هذه المرّة، ولكن خوفاً من أن يظنّ بهم سيّدهم الظنون. فرّوا خوفاً من أن يحييهم، أو يستوقفهم، أو يسائلهم فيشكّ مولى المُول في أمرهم فيجدوا أنفسهم عرضة للعقاب!

ابتسم وعَبَر.

عَبَر الأرض المجاورة لسور الشجر العقيم الذي يلتفّ حول الحقول ليصنع حول الوطن حصناً يفصله عن البريّة الممتدّة إلى أركان الدنيا الأربعة. هناك انتشرت أكواخ الفلاحين في صفوفٍ تجاور مسيرة الطوق الأخضر طوال امتداده المؤدّي إلى البحيرة

الزرقاء. في الأكواخ هيمن سكون مميت. الأصوات ماتت حتّى في أفواه الأطفال. لاحظ كيف هرعت بعض النسوة لسدّ أبواب بيوتهنّ في وجهه خوفاً من أن تسوّل له نفسه الولوج إلى الأبواب المشرّعة. كأنه كلب مسعور يخشون أن يصيبهم بالسعار. كأنّه لم يكن لهم بالأمس فقط المولى الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف. كأنه ليس الإنسان الذي عبدوه بالأمس واستجدوا الرحمة بين يديه. والسرّ؟ السرّ في غضبة القدر. إذا عبس هذا الداهية في وجه المخلوق فلا إنسان يجير. بل لا شيء يجير. حتّى الكائنات الخرساء تعبس في وجهه وتتنكّر له.

التفت ليتفقّد كلاب الحراسة الذين أطلقهم السجّان وراءه. رآهم يقفون ليرقبوه عن بُعْد. ولف بين الأشجار ليجتاز البرزخ الأخير المؤدّي إلى الخلاء. دسّ يده في طرف الجلباب وتناول حبّة تمر نضج نصفها. ألقى بها في فمه وشرع يلوكها. من شعفة الشجر فزّ طير. استباح الصمت برفرفة جناحيه وطار بعيداً. حبّة التمر تحوّلت في فمه مضغةً. استخرج النواة من فمه وتأمّلها مليّاً. انحنى أرضاً ليدفنها في جوف الثرى. غداً سيهلك هو في الصحراء عطشاً، ولكن النواة ستنبت نخلةً. النواة التي لاكَ ثمرتها في فمه وغسلها بلعابه سوف تحيا بسلسبيل أرضه التي ورثها عن أجداده كما سقاها الآن برضاب فمه. كما حمّمها

بسلسبيل روحه. سوف يحيا فيها بروحه حتى لو هلك عطشاً في صحرائه، لأن من يزرع لا يموت في ناموس الأسلاف حتى لو هجع إلى جوار الأسلاف.

انحنى ليتبيّن العسس في خصائص الشجر. لم يرَ العسس. لم يرَ الأحراس، ولكنه فوجىء بعينين جاحظتين صارمتين تحدّقان فيه من داخل الأحراش. تبادل مع الحدقتين الماكرتين نظرة طويلة قبل أن يخاطبه صاحب الحدقتين الجاحظتين:

ـ لا يليق بمن امتلك السلطان على الرقاب يوماً أن يختبىء في الأدغال اختباء الفئران في الجحور!

سكت مزّار لحظات قبل أن يهتمل هتملةً:

ـ ألا يحقّ لطريد النعيم أن يلتقط الأنفاس؟

في حدقتي الرجل لمعت بسمة ذات معنى. قال:

ـ للمغلوب لاحقّ!

تذكّر عبارة السجّان فقرّر أن يتولّى الدفاع عن النفس:

ـ غلبة الغدر ليست غلبة!

ـ الغدر الذي تتحدّث عنه يتحوّل في عرف الناس دهاءاً إذا حقّق الغلبة!

ـ ولكنه في ناموس الأسلاف خسّة!

ـ ما جدوى أن يكون الغدر في ناموس الأسلاف خسّةً إذا كان ناموس الأسلاف قد مات بموت الأسلاف؟!

سكت مزّار فأعاد صاحب الحدقتين الماكرتين العبارة مرتين.

في النهاية قال مزّار:

- لا أعرف كيف يتنكّر الناس لناموس الأسلاف بين يومٍ وليلة!

- أخشى أن الزمان هو الذي يتنكّر لا الناس الذين يحيون في الزمان!

ساد صمت. فوق رأسيهما هدل حمام. تساءل مزّار:

- ولكن من أنت؟

لم يجب الرجل، ولكنه لم يبرز من وراء ستور الأحراش أيضاً. قال:

- يحسن بك الآن أن تسلك طريق الغرب وتتوارى عن الأنظار!

- لا أعرف لماذا عليّ أن أسلك طريق الغرب دون أي طريق آخر.

سكت الرجل. انتصب فتوارى وراء الأغصان. تكلّم من وراء حجاب:

- تلك مشيئة منطوق الحكم. أمّا حكمة الحكم فليست من شأن الرسول المخوّل بتنفيذ الحكم!

سكت مزّار فأضاف الرسول المحتجب خلف الأغصان:

ـ المعبود ينبغي أن يظلّ معبوداً حتّى في سقطته من علياء عرشه، لأنّ ليس ممّا يليق بربّ الأمس أن يُرَى اليوم وهو يُجرّ خارج محرابه غَضْباً كما يُجرّ الرعاع!

6

وَصَل الطرف الغربي للبحيرة قبيل المغيب. توقّف ليتأمّل الماء. كان الكنز الأزرق يرفّ رفّاً خفيفاً مستجيباً لأنفاس الشمال: الهواء في رحلته النهارية من ركن الدنيا الجنوبي أدرك بُغيته مع حلول المساء بعد أن استراح في برزخ ركن الدنيا الغربي كعادته دائماً. استهواه رقص الغمر في تلبيته لنداء الرسول الشمالي فأقعى على الشطّ الذهبي ليرتوي من رؤية لم تستهْوِهِ منذ الطفولة. الآن فقط يستطيع أن يخاطب الماء باللغة التي يفهمها الماء بعد أن عاد من اغترابه. الجلاّد يظنّ أنه دفع به إلى الاغتراب ولن يخطر بباله أبداً أنه حرّره من اغترابه. لقد نسي لغة الماء منذ اليوم الذي ذهب فيه ليتطاول في المُلك. لم ينسَ لغة الماء وحده، ولكنه نسي لغة الريح. نسي لغة الطير. نسي لغة النّبوت. نسي لغة الأنجم. نسي لغة الحجر. نسي لغة السماء. نسي لغة الأرض. نسي لغة الأب. نسي لغة الأمّ. أضاع لغة الشّعر مقابل أن يكسب لغة الخدم. باع لغة الربّ مقابل لغة الصُّمّ والبُكم. ألهذا السبب يا ترى هانت عليه البليّة؟

ألهذا السبب هدهد في القلب طوال الوقت استهانةً خفيّةً بكل ما حدث؟ أم أن الاستهانة الخفيّة هي الخصلة التي لم يفقدها في حياته كلّها لأنها طبع مدسوس في الأرومة؟

فوق البحيرة هيمن السكون. تنصّت لصوت السكون فهاجم فيه الوجد. استيقظ فيه حنين لم يعرفه منذ اغترب عن الشّعر. غاب في مجهول السكون عميقاً فتبيّن في البعد البعيد ثرثرةً شقيّةً أحيت في الوجدان ولهاً مجهولاً، ولهاً منسيّاً كأنّه نبوءة مخفيّة. لامست النأمة الوتر المهمل الذي أكله الصدأ من فرط الإهمال فترنّح بلا إرادة واستجاب بزفرة حميمة مغسولةً بقربان الوجع. تلك الثرثرة السريّة كانت صوت النّبع الذي يمور ليعبّر عن وصيّته في الغور. النبع المجهول الذي لا يُسرّ بهويّته إلا للمجهول. النّبع الذي لا يُسرّ بحقيقته إلاّ للعمق العميق. حول شطآن البحيرة تنامت بعض الأعشاب البريّة. حول الأعشاب أبصر آثار الزواحف والدواب ورهام الطير. المخلوقات الصحراوية ترِدُ البحيرة ليلاً لتروي ظمأ النهارات في وطن القيظ. أخرج من كمّه زاد التمور. تأمّل حبّات التمر في غيهب المساء قبل أن يتناول حبّة ويلقي بها في فمه. دمدم صدره بأنين الامتنان. كان مذاق الرطب في فمه مدهشاً إلى حدّ أيقن فيه أنه لم يذق للرطب طعماً قبل اليوم. فهل استعارت الثمار لذّتها السماوية المغتربة لأنّه فقدها كملكية، أم لأنه استعاد حريّته

الضائعة؟ هل تمتلك الحريّة سلطة الأسحار التي تقلب حبّات التمر إكسير الجنّات، أم أن امتلاكه لها فيما مضى هو الذي أمات في الثمار، بل وفي كل الأشياء، طعم الحياة؟

أليس هذا برهاناً على رسالة الملكيّة التي تميت مقابل رسالة الحرية التي تحيي؟ زحف نحو الغمر ليرتوي. ركع فوق الماء، بل بركع مشيّعاً باليدين من الركبتين على طريقة الأنعام. نزل برأسه ليلامس الماء بشفتيه.

تخلّى عن الزمزية الملآنة بالماء بجوار حفنة التمر وسقط على وجهه في الماء ليشرب كما يشرب طير السماء أو هوام الأرض. فعل ذلك استجابة لمشيئة نابعة من الخفاء الخفيّ الذي هَدْهَدَ فيه دائماً الإحساس بالاستهانة. الإحساس بالسخرية الذي أجاره من إضاعة التميمة الدهرية التي لم يدرك حقيقتها إلاّ منذ قليل عندها اكتشف أنها: الحرية!

ظلّ يلغو بلسانه في ماء البحيرة منتصباً على أربع طويلاً. وعندما شيّع رأسه وأبصر في الأفق البدر الوليد أطلق آهة. الآهة لم تنقطع كما يليق بكل آهة أوجدتها الفجاءة، ولكنها تحوّلت بالاسترسال لحناً من لحون الشجن. تحوّلت لحن حنينٍ لم يفلح مزّار في مساء منفاه ذاك أن يضع له حدّاً إلاّ في اللحظة التي بلغ فيها النشيد الذروة بانبثاق الدّمع من المقلة.

7

أثناء الركعة في محراب الغمر الأزرق تسلّل البلل إلى طرف لثامه السفلي، وجلبابه الفضفاض، والسروال عند الركبتين. البلل أصاب رباط اليد اليسرى أيضاً فتخلخل القماش وانحسر عن جرحٍ فضح غياب الأصابع المبتورة الثلاثة: السبّابة، والأوسط، والبنصر في نهايات الفقرات، تحت ضياء البدر الباسل، تبيّن تيبّس الدمّ الدّالّ على بداية اندمال الجرح.

استقطع من اللثام خرقة أحكم لفّها حول جذر الأصابع المفقودة، ثم استلقى يتنصّت لرزّ السكون، ويتأمّل السماء العارية من السحب، المغمورة بفيوض البدر السخيّ. تحت هذه الفيوض تستبدل البحيرة التليدة لون جلدتها فتستعير الألق الفضيّ ليلاً بدل الزرقة المكابرة نهاراً، لأن صفاء السماء نهاراً هو الرسالة التي اعتادت أن تستسلم لها منذ الزمن الذي فرّت فيه الغيوم من سماء الصحراء لتجعل من كلّ ما تحت قبّة السماء عراءً. ويقال أن عهد البحيرة يرجع إلى تلك الأزمنة البعيدة

عندما كانت الحجارة ما تزال رخوة، والغمر المائي كان يغطّي الأرض فلا يتبدّى من اليبوسة إلاّ الجبال ورؤوس الآكام والروابي. ولكن فرار الغيم من سماء تلك الأزمان أصاب الدنيا بجدب الأعوام فامتنعت الغيوث دهراً، كما رافق امتناع الرحمة دهراً تبخّر مياه البحيرة العظمى دهوراً. وما يراه أمامه الآن ليس سوى البقعة الأخيرة الباقية من سخاء سماوات تلك الأيام. أمّا ما يسمعه من جلبة خفيّة منبعثة من جنبات قيعانها فهو العرق النابض الوحيد الباقي على قيد الحياة المخوّل بتغذية معقل الماء الأخير في القارّة الصحراوية الكبرى بأسرها. واليوم الذي سينقطع فيه ذلك الشريان السرّي فسيكون يوم النزع الأخير في حياة كائنات الصحراء الحيّة كلّها. ويبدو أن سرّ توارث الأجيال للوصيّة القائلة بوجوب إجارة «مقلة السّماء» (كما يروق للأوائل أن يطلقوا عليها) إجارةً تفوق حرصهم على مقلة العين إنّما يرجع إلى خوفهم من انقطاع شريان الحياة هذا ليقينهم بأن بقاءهم على قيد الحياة رهين ببقاء هذا الشريان على قيد الحياة.

والمدعو للعجب حقّاً أن كهنة الأجيال لا تكتفي بهذا الرهان، ولكنها تؤكّد في وصاياها على حقيقة البحيرة كضمان وحيد لاستنزال الأمطار الموسميّة لا على المراعي المجاورة للواحات وحدها، ولكن على حقيقتها كشفيع وحيد لدى جناب السماء لاستدرار الأمطار على الأرباع الشمالية شتاءً، وعلى

الربوع الجنوبية صيفاً. فإذا لم تفز هذه الأركان بالغيوث في الموسم الواحد تزامناً، فإنّها حتماً ستفوز بنصيبها في الموسم التالي، أي بالتناوب. ولا يعمّ الجدب عادة إلاّ لخللٍ مصنوع بيد المخلوق الشقيّ، مما يستدعي شراء الآثام بنحر القرابين. وقد حدث هذا الخلل في سيرة الصحراء مراراً، ونال الأنام غفران السماء بالقرابين مراراً، إلى أن حلّ العام الذي أخفقت فيه القرابين في شراء الخطايا، فأقبل عليه العرّاف ليحثّه على الاستجابة للنداء. سأل ذلك الهيكل الملفّق من العظام يومها عن حقيقة النداء، فتحدّث العرّاف عن نداء الأسلاف طويلاً، ولكنه لم يسمع. لم يسمع لأن البلبلة التي أحدثها هلاك القطعان في المراعي زلزلته أيضاً. ولم يسمع أيضاً لأن لغة الأحاجي التي يروق لكهنة القبائل أن يعبّروا بها عن الغيوب لم تستهوه يوماً لسبب بسيط وهو أنه لم يفهمها أيضاً. وعندما انتهى الكاهن من سرد نبوءاته الغامضة لا يعرف لماذا وجد نفسه يسخر منه بالقول: «الخلاصة كما في كل وصيّة أو نبوءة: النداء مدسوس في وصيّة. الوصيّة مزبورة في لوح الحجر. لوح الحجر محفوظ في الغار. الغار محفور في الجبل. أليس كذلك؟ أليس هذا هو منطوق الوصيّة التي ستجلب للقبائل الخلاص كما تجلب التميمة السحرية الكنز المفقود لطلاّب الكنوز؟». جعجع بعدها بضحكة جنونية. ضحكة تليق بإنسان بلغ به اليأس حدّاً لم يبق له فيه إلا الاحتكام إلى السخرية: السخرية من القارعة، والسخرية من

النفس التي زلزلتها القارعة فلم تجد دواءً تستعين به على الدّاء إلا التشبّث بتلابيب العزاء الذي تهبه السخرية. ولكن ذلك الشبح الهشّ الملفّق من العظام وشبكات العروق والتحدّي لقّنه ببروده وحكمته في ذلك اليوم الدرس الذي لم يكتب له أن ينساه أبداً: لم يستجب العرّاف لاستخفافه الموجع ولو بنأمة. استمع وعلى شفتيه بسمة خفيّة دون أن يلتفت إليه. وعندما انتهى هو من جعجعته المنكرة حدجه خلسةً بنظرة غريبة. ثمّ فر ببصره إلى الأفق وصمت طويلاً قبل أن يهينم: تستطيع أن تفرّ من كلّ شيء، ولكنّك لن تستطيع أن تفرّ من قدرك. تستطيع أن تتنصّل من كل وزر، ولكنّك لن تستطيع أن تتنصّل من الواجب!».

هل استطاع أن ينقذ ما يمكن إنقاذه حقّاً يوم استجاب للوصيّة وذهب إلى الواحة ليتطاول في أملاك الأسلاف تأديةً للواجب الذي تحدّث عنه العرّاف؟ القبائل سوف تجيب على السؤال إيجاباً، برغم أنه لم يستطع أن يتحرّر من الشكوك في هذا الشأن. ذلك أن كل ما فعله، وكلّ ما عدّه الأغيار إنجازاً، أثناء عمله في «تيرا» المجيدة، ما هو في يقينه سوى سعي باطل لأنه اكتشف أن الواجب الذي وضعه الأسلاف غلاًّ في رقبته يبدو لغزاً حميماً مجبولاً بالإغواء في فم الحكمة، ولكنه خطر مبين إذا تعلّق الأمر بهويّته. خطر مبين لأن اعتناقه استوجب عقد

صفقة أليمة فقد بموجبها أنفس ما وهبته السماء في حلفها مع حميمتها الصحراء على الإطلاق وهي: الحرية!

بلى! بلى! لقد أقبل على مُلْك أسلافه بقلبٍ عارٍ ليخلّص الناس من المجاعة، ولينقذ واحة الأجداد من الضياع الذي تهدّدها، ولكنه بهذا الخلاص خسر خلاصه. في الواحة تنادى الخلق ليولّوه على أنفسهم كما ولّوا أسلافه الذين تولّوا، أمر الواحة من قبله، ولكنه امتنع. قال لهم أنه لم يأتِ لينصّب نفسه على الناس ملكاً، ولكنه جاء ليضحّي بنفسه في سبيل إبقاء الحياة وإحياء الناس تلبيةً للنداء الذي ورثه عن الأسلاف، وكلّ ما عليه أن يفعله لكي يستقيم الأمر هو أن يعمل على تشكيل مجلس العقلاء الذي سيتولّى الأمر بالإنابة عنه. لقد تغنّى يومها بمعشوقه الواجب كثيراً. تشدّق بهذه اللفظة الخطرة التي تضمر أكثر بكثير مما تظهر فتقدّم منه أحد الأعيان محذّراً: «الواجب عدوّ الفرح، فاحترس!». لم يفهم العبارة في ذلك اليوم المشحون بالانفعال والحماس والآمال فاستفهم من الرجل غاضباً: «تسيء بي الظنّ إذا كنت تحسبُ أني جئت إلى «تيرا» لحصد غلال الفرح!». ولكن الرجل ابتسم في وجهه بسيماء المعتذر ليوضح: «أردت أن أقول أن الواجب الذي تتحدّث عنه ليس عدوّ الحرية التي جئتنا من ديارها وحسب، ولكنه عدوّ الحياة أيضاً!».

اليوم فقط، وبعد فوات الأوان بالطبع، يستطيع أن يؤمن كم كان ذلك الشبح (الذي لم يره بعد ذلك اليوم أبداً) على حقّ. كان على حقّ لأن الناس الذين ضحّى بسعادته ليسعدهم خذلوه في النهاية كما يليق بالناس أن يفعلوا. ليس هذا فحسب، ولكنه اقترف خطيئة أخرى في حمّى سعيه لترضية معالي الواجب. خطيئة حذّره من ارتكابها أحد الدهاة منذ أوّل يوم وهي اقتسام السلطان على الناس ذلك السلطان الذي لم يحدث أن قبل قسمةً في تاريخه منذ الأزل. لقد قال له الداهية بوضوح يوم سلّم الأمر لمجلس العقلاء، ووضع رقبة القضاء في يد تلك الزمرة أيضاً: «ثلاثة أشياء في دنيانا، يا مولانا، لا تقبل الاقتسام: السلطان، والمال، والمرأة. هذه العنقاء برؤوسها الثلاثة يجب أن نتخلّى عنها كاملةً، أو نمتلكها امتلاكاً كاملاً. أمّا الإدّعاء بجدوى الإمساك بالعصا من الوسط، ومشاهدة أدعياء العقل وهم يستبيحون دون وجه حقّ سلطاناً وضعته أنت في أفواههم لقمةً سائغة، ومراقبة الأمر عن بُعْد طلباً للسكينة، فأمرٌ يمكن أن ينقلب بليّةً على صاحب الأمر طال الزمن أم قصر!».

يعترف الآن أن وصية ذلك الداهية كانت نبوءة فاقت في صدقها نبوءة العرّاف. لقد ودّع الفرح بالفعل منذ اليوم الذي اعتنق فيه الواجب، وها هو يفقد السلطان والمال والمرأة لأنه أخضع للقسمة العنقاء التي لم تعترف يوماً بالقسمة!

ولّى ظهره لمحفل الحكماء وتركهم يتجادلون في شؤون الحياة الدنيوية: سنّ القوانين الوضعية لتنظيم حياة الناس اليومية كالقضاء والمكوس وحركة القوافل التجارية، وذهب ليعمل على إنقاذ «تيرا» من البؤس واللامبالاة والحاجة وإهمال الأعوام ليجعل منها بستاناً في أمدٍ قصير بعد أن وجدها يباباً مهدّداً بالزوال برغم كنز المياه الهاجع تحت الأقدام.

ولكن الإخلاص في أداء الواجب لم يشفع له لدى صاحب الجلالة: الخفاء؛ لأنه ما أن انتهى من الواجب مقرّراً أن يستريح ليجني ثمار عمله حتّى فوجىء برسول الظلمات يفسد عليه خلوته في أحد الأيّام ليواجهه بكشف الحساب الذي لم يخطر له على بال! ولكن.. ولكن البلاء ليس أن يتلقّى لطمة القدر وهو الذي تعلّم من بلايا الجدب تذبذب مسلك الأيام، ولكن البلاء حقاً هو أن يستسلم لقارعة القدر بمثل هذه السهولة.

8

ـ أيعقل أن تكون أنت المدعو بـ «الأبتر»؟

أوّل ما فعله مزّار بعد سماعه للسؤال هو السقوط ببصره ليتأمّل يده المبتورة الأصابع كأنه يراها لأوّل مرّة. يراها كأنّها يد غريبة تنتمي لمخلوقٍ آخر غريب وليست يده. أدهشته اليد الملفوفة في الرباط كأنه يكتشفها دون أن يصدّق أن اليد التي يتأمّلها هي يده، والأصابع المبتورة الملفوفة في خرقة القماش هي أصابعه، مما يبيح لصاحب القضاء الذي يقف قبالته الآن أن يطلق عليه لقب «الأبتر» بعد أن كان بالأمس الرجل نفسه ينحني له إكباراً كلّما حالفه الحظّ بالمثول بين يديه ليهتمل وجلاً بعبارة: «جلالة وليّ الأمر».

كان على مزّار أن يستعيد في لحظة سيرة الأمس التي كانت السبب في وقفته البلهاء تلك. فقد عقد الآمال على المراعي منذ خروجه في طريق الغرب بعد أن انتعش البرّ ما أن انتعشت الحياة في الواحة كأنّ الخصمين الخالدين (الصحراء والواحات)

مقيّدين بحلفٍ خفيّ ينتكس فيه أحدهما كلّما حاقت الحاقّة بثانيهما، كأنّ الجدب طامّة، أو وباء يمكن أن ينتقل بالعدوى. عقد العزم على الاستجارة بالمراعي السخيّة في مفازات الغرب ليقينه بأن خلاص الديار المطوّقة دوماً بالحصون والأسوار لن يتحقّق ما لم يأتِ من الأطراف، ما لم يأتِ من الخلاء، لسببٍ بسيط هو أن الحصون سجون بالمقارنة مع البرّ الطليق الذي لم يكن يوماً سوى تجسيداً جليّاً للحرية. ولهذا السرّ سَنّ الأسلاف على مرّ الأجيال، الناموس القديم المترجم في حرف الوصيّة القائلة: «لا تتوسّد جوف الواحة برأسك إذا شئت أن تحيا طليقاً، ولكن دُسْها بقدمك على أن تحتفظ برأسك خارج جوف الواحة!». العمل بالوصيّة أجار القوم من العبودية على مرّ الأزمان حقّاً، لأنّهم كانوا يمتلكون الواحات التي لم يتمتّعوا بخيرها يوماً لأن هاجس الحرية دفعهم للتخلّي عنها لفلاحيهم وعبيدهم وحدّاديهم الذين لم يأبهوا إذا استعبدوا، لأنّهم بالوقوع في عبودية الغزاة لن يصيبهم أسوأ مما أصابهم؛ لأنّهم، بالاستسلام للسادة الجدد، إنّما يستبدلون عبودية بعبودية، أي سادة بأسياد. وقد كافأتهم الأقدار على هذه الروح لا بتأمين القوت الأبدي فحسب (هذا القوت الذي لم تضمنه الصحراء لأسيادهم يوماً)، ولكن الأقدار كافأتهم بخلافة سادتهم في امتلاك ممتلكاتهم، بل بامتلاك الواحات نفسها: ذلك أن الغزاة لم يكونوا يوماً بليّةً جاثمة، ولكنّهم بلايا عابرة مثلهم مثل

العجاج الذي يغزو الصحراء، لأن غاياتهم من غاراتهم على الواحات استعباد الأحرار الذين فرّوا لا العبيد الذين استقرّوا. فإذا طاب لهم المقام في ربوع الواحات فإنهم كثيراً ما يكتشفون جدوى الإبقاء على العبيد أحياءاً لحاجتهم لمن يخدمهم ويقوم بأمرهم في الوطن المستعبد. ولكن الأيام برهنت كم هو وقتيّ مقام الغزاة في واحات الأسلاف، لأنّ السادة الذين لا يملكون ما يمكن أن يخسروه في حريّتهم سرعان ما يستردّون الأوطان المستلبة ما أن يستمرىء الغزاة حياة الاسترخاء داخل أسوارهم، لأن الجدران إذا طال الأمد تنقلب سجوناً. وليس أيسر على الإنسان الطليق من القبض على الإنسان المحشور داخل جدران السجون، لأن الإنسان الذي ذهب ليعتقل نفسه في السجن اختياراً وحده يمكن أن يصدق عليه تعبير الإنسان الذي سجن نفسه بنفسه! هنا تتحرّر الواحة بيد السادة تتحرّر بيد جيلٍ آخر وربّما بعد أجيال، فيحدث الخلل الذي كان دائماً مفارقة ظالمة إذا حكّمنا منطق العدالة الأرضيّة وهو أن الأخلاف بناموس الكرّ والفرّ الأبديين، لن يكتب لهم أن يرثوا الأسلاف أبداً. قد يرثونهم في الحسب والنسب والمسلك الأخلاقي والهويّة، ولكنهم لا يرثونهم عادةً أبداً فيما يتعلق بالملكية، بل من يرث الأسلاف في امتلاك الواحات هم عبيدهم أو خدمهم أو حدّاديهم، ولكن ليس أخلافهم الشرعيين. والسبب، كما يبدو، يرجع للطبيعة اللئيمة للملكيّة التي لا تعترف بالامتلاك عن بُعْد.

لا تعترف بالعلاقة المحكومة بالحريّة، لأنّ شريعة الملكيّة أن تمتلك من يمتلكها. وهي لا تستطيع أن تمتلك من يمتلكها لمجرّد أنه دوّن عقد الملكية بحرف مزبور على رقّ أو كاغدٍ أو قرطاس، لأن البصمة أو الختم لون يمحوه الزمن. أمّا العلاقة التي تطلبها الملكيّة من صاحب الملكيّة فهي بصمة في الروح. وبصمة الروح ختم ماكر لا يختلف عن ختم العبودية ذاتها. ولهذا السبب يروق للملكية أن تنسلّ من بين يدي المالك الشرعي (أو المالك الحقيقي) لتتسلّل إلى يد المملوك الذي تستطيع أن تمتلكه. إنها كالمرأة الخئونة التي تنسلّ من مخدع القرين لتفرّ إلى أحضان أرذل العبيد لا لشيء إلاّ لأنها تستطيع أن تمتلك العبد، ولكنها لا تستطيع أن تمتلك سيّده المجبول بهاجس الحرية. لأنّ لا شيء يستثير غيرة المرأة كما تستثيرها الحرية إذا نامت في قلب البعل!

فهل هي عدالة السماء أن يكافأ العبيد لقاء عبوديّتهم بأن يرثوا أملاك سادتهم لأن الملكيّة هبة دنيوية، في حين يكافأ الأسياد بإضاعة لا الملكيّة وحدها، ولكن أوطان الملكية أيضاً، لأن خسارة متاع الدنيا قربان الحرية؟

لقد جاء إلى الواحة ليعيد الاعتبار لإرث السلف، ولكن لعنة الاستقرار أصابته بداء الاسترخاء، فكان ظهور الشبح الذي أطلق عليه لقب «الجلاّد» بمثابة غزوة الأعادي التي أطاحت بسلطانه

في غمضة. أطاحت بالملكيّة التي كبّل نفسه بوزرها دون أن ينتبه إلى أنه إنّما استعار الدور الذي حذّرت منه الوصيّة، فاستبدل الحرية بثمنٍ معيبٍ وفانٍ هو في أنبل أجناسه لن يعدو أن يكون القمقم.

ولكن الإحساس بالعار أصابه بالمسّ فعاد يمنّي نفسه بوجود الخلاص في المراعي على طريقة الأسلاف الذين لم تخذلهم الصحراء يوماً، فكانوا يأتون من ربوعها دائماً بالحرية.

هجع في تلك الليلة المغسولة بألق البدر ليرى في نومته كابوساً: رأى خلاء المراعي المفروش ببساط الكلأ الأخضر الذي ترتع في أركانه القطعان الملآنة شحوماً فاستبشر خيراً. ولكن البشرى لم تدم طويلاً، لأن ما أعقب هذا المشهد لم يخيّب فيه الأمل وحسب، ولكن أصابه باليأس. فقد فرّ من وجهه الرعاة كأنهم يفرّون من عدوّ أو وباء. لا يقترب من أحدهم حتّى يطلق رجليه للريح كأنه رأى في سيمائه سعلاةً أو مخلوقاً من أهل الخفاء. والمثير أنه لم يدعهم لفرارهم، ولكنه انطلق يعدو وراءهم. طاردهم في كلّ مكان. في الوديان، وفي الروابي، وفي السهول، دون أن يظفر منهم بطريدة واحدة. لم يظفر بهم لأنه اكتشف أنهم يتبخّرون كأنهم كائنات ملفّقة من سراب. يتبدّون في طور المطاردة الأوّل، ولكن أبدانهم تتمدّد إلى أعلى فجأة وتبدأ في الإضمحلال والنحول حتّى تختفي في

النهاية تماماً. يتوقّف عن مطاردة السرب الزائل ليلتفت إلى العصابة التالية. يجدّ في أثر الفيض الجديد. يفرّ الفيض فرار الغزلان، ولكنه يبدأ في الارتفاع والتلاشي حتى يتوارى تماماً. استمرّت هذه المطاردات المضحكة زمناً كافياً لإصابته بالتعب، فتوقّف. توقّف لالتقاط الأنفاس، ولكنه لم ينعم باستراحته طويلاً، لأن شبحاً مهيباً ملفوفاً بالغموض والسواد أقبل عليه بخطوات واثقة كأنها مشي الأكابر حتى وقف في مواجهته. حاول أن يتبيّن سيماءه، ولكن لثامه الكئيب كان محكماً حول وجهه بحيث غيّب السيماء كلّها. مدّ له يده ليصافحه فتمهّل الشبح لحظات كالمتردّد. ولكنه تناولها في كفّه في النهاية ليستبقيها هناك. استبقاها لنيّة مبيّتة كما تخيّل هو في ميتته الصغرى تلك. في اللحظة التالية تملكه خوف. خوف خفيّ لم يدرك له سبباً. الخوف ما لبث أن تحوّل ألماً. ألم لا يطاق شلّ يده الملقاة في كفّ الرجل لينتقل على نحوٍ مريب إلى اليد الأخرى. إلى اليد اليسرى. إلى اليد الجريحة بأصابعها الضائعة. تصاعد الألم ليسري في البدن كلّه. كلاّ، كلا! لم يسرِ الألم إلى كل الجسد، ولكنه سرى ليمسك بالخناق. الألم تحوّل يداً رهيبة في قوّتها تلتفّ حول الرقبة وتخطف من رئتيه الهواء. بدأ يختنق ويستبسل لتحرير يده من قبضة المارد الملفوف في غياهب الظلمات. في لحظة الاحتضار لمع قبس الإلهام: الجلاّد!

لفظ الكلمة بأعلى صوت ففزّ من الكابوس واقفاً ليكتشف أنه كان ينام طوال الوقت على يده الجريحة. أطلق سيلاً من اللعنات قبل أن يستدرك ليستبدل اللعنات بقراءة التمائم. مسح العرق حول وجهه ورقبته وصدره ثم زفر بعمق وهو يتأمّل قبس الفجر يغزو طابور الأشجار التي تطوّق الواحة لتبدع بسيقانها حول الحقول سوراً. يمّم شطر القبس ليتمتم بصوت مسموع كأنه يدلي بقَسَم مجهول:

ـ لن أذهب إلى المراعي! لن أذهب في طريق الغرب أبداً!

9

في دار القضاء كرّر صاحب القضاء السؤال:

ـ أيعقل أن تكون المدعو بـ «الأبتر»؟!

لحظتها فقط أدرك مزّار أن اللقب الذي سيصبح له منذ اليوم هويّةً قد تنقّل في الأفواه ليسبقه إلى دار القضاء التي لجأ إليها أملاً في ردّ الاعتبار. ابتسم في وجه صاحب القضاء ليجيب بحزن:

ـ بلى! أنا المدعو بالأبتر!

وكي يبرهن على حسن نواياه شيّع يده الملفوفة بالرباط في وجه صاحب القضاء ليعيد النطق بالاسم مرّة أخرى.

ويبدو أن صاحب القضاء قرأ إيماء الحزن في عينيه فقرّر أن يشدّ أزره بعبارة عزاء:

ـ لا ينبغي أن يحزنك أن يدعوك الناس بالأبتر، لأن الألقاب التي نصنعها بسيرتنا بين الناس هي ما يعتدّ به في دنيانا لا الأسماء التي يطلقها علينا الآباء في قماط المهد.

ولكن مزّار اعترض:

ـ ولكن «الأبتر» هو الاسم الذي صُنِعَ بي ولم أصنعه بنفسي، كما لم أرتضه لنفسي!

حاجج صاحب القضاء:

ـ أن يُصنع بك الإسم أو يُصنع لك أيضاً سيرة سواء ارتضيتها أو لم ترتضها، لأنّ السيرة عادةً ليست رحلة فرح، ولكنها في أغلب الأحيان تجربة وجع. ولهذا ورثنا في الكتاب الضائع «آنهي» الوصيّة القديمة التي تقول: «قل لي ما اسمك، أقول لك من أنت». المقصود بالاسم هنا هو الاسم المصنوع بالطبع، لا الاسم الذي نلناه على سبيل الإعارة، فاحترس!

حدّق في عيني مزّار بمقلتين جاحظتين ذكّرته بمقلتي حارس الدغل اللعين، ثم أضاف:

ـ أردت أن أقول أن الاسم ليس عاراً حتى لو حمل في أعطافه ذكرى أليمة، ولكنه في النهاية هو الهويّة الحقيقية التي اعتاد أسلافنا أن يرفعوها على رؤوسهم شعاراً مزبوراً في الرايات بدل أن يخفوها في جيوب أثوابهم كما يفعل بلهاء بقيّة الأمم!

هَيْنَمَ مزّار باستحياء بيّن:

ـ تمنّيت أن أستبقي إسمي الذي صرخت به الجدّات في أذني يوم برزت إلى هذه الدنيا.

صاحب القضاء لم يستسلم:

ـ هذا استكبار عرفناه فيك دائماً، ولكنه ليس حُجّة صالحة لإقناع أحد. فأن يصير اسم القدر هويّة أمرٌ يشترط الاعتراف بعلّة الاسم. فلو أردت الحقيقة فأنت إنسان أبتر بالفعل. وإنكارك لذلك لن يجديك نفعاً لأنّك لست أبتر الأصابع وحدها، ولكنك مبتور الحضور!

استولت على مزّار قشعريرة. استنكر:

ـ مبتور الحضور؟

ـ أنت لست مبتور الحضور فقط، ولكنّك منذ اليوم أبتر المصير!

ـ أبتر المصير؟

تطلّع إليه الرجل بدهشة قبل أن ينطق بالحكم:

ـ تستطيع أن تخدع نفسك، ولكنّك لن تفلح في خداع الناس. وإلاّ أين أنت اليوم منك بالأمس القريب؟ أين ملكك؟ أين واحتك؟ أين مجدك؟ أين امرأتك؟ أين سليلك الذي تأمّلت أن تتركه في الأرض بعدك ليكون لك في الدنيا خليفة؟

تمتم مزّار بعد صمت:

ـ أنا ضحيّة غدر! أنا ضحيّة قدر!

ـ كلّنا ضحايا غدر. كلّنا ضحايا قدر. مَنْ لم يَصِرْ ضحية قدر اليوم فسوف يأتي دوره ليصير ضحيّة قدر غداً، فلا تبتئس أيّها الأبتر!

تكلّم مزّار بلهجة لومٍ فاجع:

- أتيتك لأشكو القضاء قدري، لا لأستجدي العزاء في بليّتي!

حدجه صاحب القضاء باستغراب، ثمّ ابتسم بغموض قبل أن يقول:

- لا أخالك تعوّل على سلطان القضاء في مَصابٍ كهذا!

رمقه مزّار بنظرة مشفوعة باستنكار:

- بالطبع أعوّل على سلطان القضاء!

أفلتت من فم الرجل ضحكة مكتومة. سكت. تأمّل المروج المطبوعة على الزربية الأنيقة التي يتربّع عليها. قال مطأطئاً:

- وهل تظنّ أن في استطاعة سلطان دنيويّ فانٍ كقضاء واحة «تيرا» أن يتدخّل لتقويم شأنٍ قرّره سلطان القدر؟

- سلطان القدر لم يتنزّل من مجهوله مسبوكاً في صورة مخلوق ليستولي على حَرَم مِلْك مخلوق آخر ناله بالكدّ والجدّ والصبر الطويل على ما يكره، فلماذا لا تريد أن تسمّي الأشياء بأسمائها الحقيقية فتقول أنّي ضحية جنّ أم ضحيّة إنس مجنون؟

- ها أنت تعترف بأن القدر لا يتنزّل من مجهوله مسبوكاً في صورة مخلوق. هذا يعني أن القدر يستخدم رسلاً لتنفيذ مشيئته. وهؤلاء الرسل يمكن أن يكونوا من سلالات الجنّ، وقد يكونوا من ذريّة إنس بها مسّ من جنون!

ـ أن يكون صاحب الجنون رسول قدر لا يعطيه الحصانة في عمل العدوان.

ابتسم صاحب القضاء باستخفاف قبل أن يعترض:

ـ ليس هويّة الرسول هو ما يعطي الجاني حصانة في نظر الناموس الأرضي الذي اعتدنا أن نسمّيه قضاءاً أو قانوناً، ولكن القوّة هي السرّ الذي يعطيه الحصانة!

ـ القوّة ليست برهاناً. لم يوجد الناموس الأرضي كما تسمّيه إلاّ ليردع القوّة إذا كانت جوراً.

أجاب الرجل ببرود أدهش مزّار:

ـ القوّة دائماً جور. لا وجود لقوّة عادلة أبداً!

ـ ماذا؟

ـ أردت أن أقول أن قوّتك سنوات سلطانك كانت أيضاً جوراً في جور!

لم يصدّق مزّار ما سمع. حدّق في وجه جليسه فاغر الفم. حدّق طويلاً كأنّ الصفعة شلّت فيه عضلة اللسان، ولم يفلح في امتلاك نفسه إلا بعد أن رأى على شفتي الجليس نظرة شماتة، أو ما خيّل له أنه نظرة شماتة:

ـ هل يعدّ جناب القاضي سلطاني قوّة جور برغم كلّ ما فعلته لكي لا أنفرد بالسلطان؟ هل أنا من تولّى تعيين القضاة أو غير القضاة، أم مجلس الأعيان هو من فعل ذلك؟

أجاب الرجل بلهجة كاللامبالاة:

ـ لا يجب أن تنكر أن مجلس العقلاء كان يفعل بالفعل، ولكنه لم يكن ليفعل فعلاً لم ينل رضاك!

صاح مزّار:

ـ ما معنى أن المجلس لم يكن ليفعل فعلاً دون رضاي؟!

ـ هذا يعني أنّك كنت أنت المجلس من وراء حجاب!

استنكر مزّار بأعلى صوت:

ـ أنا المجلس من وراء حجاب؟

زفر الإنفعال بسخاء. أضاف:

ـ أتحدّاك أن تبرهن على سلطتي على المجلس في تعيين مخلوق في منصب، أو تنحية آخر من منصب، أو تدخلتُ في شأن من شؤون ذلك المحفل الذي ما زال أعضاؤه على قيد الحياة. والدليل هو.. هو أنت!

هتف صاحب القضاء:

ـ أنا؟

ـ أراهن أن تثبت أنّي تدخلتُ أو لمّحت مجرد تلميح في أمر قيامك بأمرل هذه الدار!

عاد الرجل يبتسم. طارد بسبّابته بعض الرموز الملوّنة المختومة على الزربية، ثمّ قال:

ـ إذا لم تكن عينك على المجلس، فعين المجلس عليك شئت أم أبيت. هذه طبيعة الأشياء التي لا تخضع لإرادتنا، ولا لأمزجتنا، لأن كلمتها هي الكلمة النهائية العليا!

صفع مزّار كفّاً بكفّ:

ـ وهل تأخذني بخطايا محفلٍ لمجرّد أن عينه عليّ كما تقول؟

سدّد إليه القاضي نظرة صارمة:

ـ الدّهاء أن نوحي، لا أن نقول. الإيحاء لغة الأسياد التي لا يأتيها الباطل لا من أمامٍ ولا من خلف إذا قورنت بعضلة اللسان التي لا يتنازل لاستخدامها إلا السفلة وخشارة الأسواق!

سكت لحظة قبل أن يضيف باستفزاز:

ـ أنت كنت من الفئة الأولى بامتياز!

صوّب إليه مزّار وجهاً شاحباً من فرط الذهول. حشرج بصوت يخنقه الانفعال:

ـ هل أسمع إدانة من فم القضاء؟

ولدهشته وجد القاضي يهزّ عمامته إيجاباً، فأطلق زفرة عميقة:

ـ جئت إلى دار القضاء شاكياً فوجدت نفسي ضحيّة لشكوى!

ابتسم الرجل، ولكنه تشبّث بالصمت. قال مزّار:

ـ هل عليّ أن أترافع لإثبات براءتي من التّهم الموجّهة إليّ، أم من حقّي أن أنيب عنّي شخصاً آخر؟

همتمل القاضي:

ـ لا أظنّ أنك تستطيع أن تجد مخلوقاً واحداً يقبل أن ينوب عنك في مرافعة كهذه؟

خنقت مزّار عبرة قبل أن يحشرج بسؤال:

ـ ولكن لماذا؟

حدجه الرجل برثاء قبل أن ينطق بالحكم:

ـ يحزنني أن تذوق طعم السلطان ولا تعرف طبع الناس. عليك أن تعلم أن الخلق أعداء للعرش الذي تربّعت عليه لا لك أنت. ولكنّهم اليوم جميعاً أعداء لك لأنّهم لا يستطيعون إلا أن يروا فيك صاحب العرش الذي كرهوه!

هيمن سكون ثقيل. تساءل مزّار:

ـ هل هذا حكم مسبق بإدانة يقين؟

هزّ رجل القضاء رأسه إيجاباً، ولكنه لم ينبس، فعاد مزّار يسأل:

ـ ولكنّي جئت دار القضاء بإرادتي لا معتقلاً غصباً كما يقضي حرف القانون الأرضي؟

تطلّع إليه الرجل لحظة، ثم أعلن:

ـ لو لم تقبل علينا طائعاً لأرسلنا وراءك الأحراس ليأتوا بك مكبّلاً بالحديد!

نظر مزّار في سيماء الرجل مكذّباً ما يسمع. غمغم:

ـ ولكن وليّ أمركم الجديد شاء لي مصيراً آخر عندما أبلغني بوجوب الذهاب إلى المنفى في طريق الغرب؟

حدجه الداهية بمكر قبل أن يجيب:

ـ ولكنّك استهنتَ بأمر وليّ الأمر فلم تذهب في طريق الغرب!

عاد السكون يهيمن أكثر من أي وقت مضى. اختلس صاحب القضاء نحو جليسه نظرة خفيّة. همّ بأن يتكلّم، ولكن مزّار سبقه:

ـ هل ستضع القيد في يدي الآن؟

أجاب الرجل:

ـ لا أملك الحقّ في أن أضعك في القيد ما دمت أنت الذي أقبل عليّ طائعاً!

نطق مزّار همساً:

ـ كم ترى نسبة فرصتي في النجاة؟

تجهّم الرجل، ولكنه عبث بخطوط الزربية قبل أن يقول:

ـ نسبة البراءة في ناموس القضاء دائماً مشطورة إلى نصفين!

ردّد مزّار غائباً:

ـ مشطورة إلى نصفين..

قال القاضي:

ـ أعني أن الأمر لا يعتمد على الحقّ من الباطل، ولكنه يعتمد على جنس المرافعة!

10

هَمَّ أن يعود إلى البحيرة، ولكنه توقّف في منتصف الطريق. تلكّأ قليلاً ثمّ هَيْنَمَ بصوت اليقين:

ـ لن أذهب إلى البحيرة!

سار في دربٍ احتفرته القوافل بأخفاف الإبل ينطلق نحو الشرق. الدرب أدّى، بعد مسافة، إلى قناةٍ متعرّجةٍ تجري في حضنها مياه بحيرته السخيّة التي تنبع من الغمر الأزرق وتخترق الجانب الشمالي من الحقول لتذهب إلى واحة «إتران» المجاورة التي تبعد عن «تيرا» مسافة يومين مشياً على الأقدام.

هذا الشريان النفيس كان من صنعه. لقد كانت المياه الفائضة عن الحاجة تذهب في الماضي لتصبّ في أرباعٍ غنيّة بالأسباخ اعتاد بعض الأهالي أن يستثمروها في استخراج الملح ليبيعوه إلى القوافل المتجهة إلى بلدان الأدغال في الجنوب القصيّ مقابل وزنه تبراً إبريزاً.

ولكن مناجم الملح كانت تستقطع من سكّان الواحة سنويّاً

ضحايا سخيّة بسبب الأنفاس المسمومة التي كانت تنفثها تلك المناجم لتتسبّب في الوفاة بداء الرئة، فرأى أن يستجيب لنداء صاحب واحة «إتران» (التي كانت تعاني نقصاً مميتاً في المياه) ليسمح بمدّ قناة من البحيرة لتغذية الجار بحاجته من الماء مقابل إتاوة سنويّة مغرية. تباحث في التفاصيل مع صاحب الواحة بواسطة الرسل والمبعوثين إلى أن تمّ أخيراً التعاقد لإنجاز الصفقة. وقد تباهى بعمله هذا عقب التنفيذ في الرسالة التي بعث بها إلى قرينه في «إتران» قائلاً أنه لم يهرع لنجدة الجار طمعاً في الربح لأن الماء الذي جاد به على «إتران» ليس ماءً ولكنه دم الأسلاف، والدّم لا يشترى بكنوز الدنيا، لأنه الحياة، ولكنه تنازل ليغذّي من شريان دمه ودم أجداده جسد الجار بالحياة تلبيةً لنداء التضحية، لأن ما نفع الإنسان إذا لم يضحِّ في سبيل الإنسان؟ وما جدوى أن يحيا الإنسان منعّماً إذا لم يؤدِّ واجباً نحو أخيه الإنسان؟

وقد روى له الرسول الذي نقل الوصيّة تأثّر صاحب «إتران» بشدّه ما أن قرأ الرقعة إلى درجة ذرف الدموع في حضرة الرسول برغم الأساطير التي تُروى عن قسوته وبخله بكل ما ملكت يده، فكيف بدمعٍ هو ملك القلب؟

سار بمحاذاة القناة التي ظلّت تتلوّى حيناً وتستقيم حيناً آخر، تتعرّى حيناً لتسطع الشمس في لآلىء مياهها، وتتستّر بسقوف

الطين والجريد وألواح الحجارة حيناً آخر. على جانبيها نبتت في بعض المواقع أشجار النخيل، وفي مواقع أخرى تلتّبت أجنابها نباتات طفيلية عنيدة تتحوّل ديساً حيناً، وتتكاثف في أدغال النبوت الصحراوية المجهولة الهويّة حيناً آخر.

كان يرتوي من الماء طوال مسيرته، ويتقوّت التمر من عراجين النخل حتى زحفت الظلمة فقضى ليلته الأولى على سيف رملٍ يشرف على المجرى.

في اليوم التالي انطلق مبكّراً، ولكنه استظلّ بالنخيل قبل أن ينتصف النهار بسبب الحرّ مقرّراً أن يستبدل مسير النهار بمسير الليل. سار ليلاً ليدرك تخوم «إتران» مع طلوع فجر اليوم التالي. تسكّع خارج السور ليقتل الوقت، ثمّ أقعى مسنداً ظهره إلى الحائط عند بوابة المدخل. غالب النعاس بعناد وهو يشاهد كيف تتحرّر النباتات البريّة من غياهب الفجر لتستعير في القبس الوليد سيماء أشباحٍ شبيهةٍ بالظلال التي يحبكها سلطان الحرّ بنسيج السراب وقت الظهيرة. ولكن سيماء الظلال بدأت تتجلّى في حين انتظر أن تتبدّد. بدأت تلتئم وتتجسّد إلى أن استوت في أجرام كبكبةٍ من رجّالةٍ يتحادون في سعيهم وهم يقودون صِرْمة إبلٍ محمّلةٍ بالأثقال. تابع مسيرة القافلة وهو يغالب نعاساً كان خصمه دائماً في مثل هذا الوقت من مطلع كلّ يوم، فلا يدخل معه في نزاع مرّةً إلاّ لكي يمنى بهزيمة. هذه المرّة مُني بالهزيمة

أيضاً برغم استماتته في النزاع. طرحه النوم في هبوعٍ عميقٍ مثيل لهبوع ذلك اليوم الذي استيقظ فيه ليشهد بليّته على يد ذلك المسخ الكريه الذي لم يعرف له هويّة، ولم يدرك له اسماً فلم يجد مفرّاً من أن يخلع عليه لقب «الجلاّد».

حدثت الطّامة في هجعة الأصيل التي حذّر منها الأسلاف في الناموس الضائع «آنهي»، وتوعّدوا كل مستسلمٍ لها بضروب الشرور وأجناس القصاص. أمّا النّومة التي تسبق شروق المعبود الخالد فخطيئة أخرى لا تختلف عن خطيئة النومة التي تسبق الغروب إن لم تكن أسوأ إثماً ولهذا السبب فهي، في عرف القوم، أشدّ قصاصاً.

ولكن ما سرّ الوسوسة التي تعامل بها الأجيال اللحظات التي تسبق اغتراب المعبود الخالد، واللحظات التي تسبق عودة المعبود من رحلة اغترابه الأبدي؟ هل حقيقة الوسوسة عمل من قبيل الإكبار، أم أنها عمل من قبيل الخوف؟ هل المراسم، بل المغالاة في تأدية هذه المراسم، عمل من قبيل العبادة مثلها مثل أغاني الحنين التي لم تكن يوماً لحون طربٍ، ولكنها تراتيم إيمانٍ؟ أحد الدهاة حدّثه مرّة أعوام مجده قائلاً أن مشاهدة قبس الفجر ليس شرط فلاح في شأن الدنيا وحسب، ولكنّه شرط السعادة. أمّا يقظة الأصيل فليست شرط العافية فقط، ولكنّها التميمة التي تجير من الشرّ. فهل صدق الداهية؟ ألا يعني هذا

أن مشاهدة ميلاد المعبود الخالد هي الشهادة التي تضمن للعابد في محراب القبس الإلهيّ الفوز بعنقاء الأساطير الملقّبة في معجم الأمم بإسم السعادة؟ وألا يعني الشقّ الثاني من وصيّة الداهية أن اليقظة (التي هي أيضاً صلاة) لحظة مراقبة المعبود وهو يلفظ أنفاس الفراق هي أمنية العابد التي قضت الأقدار أن تتحقّق إذا أخلص في التمنّي (لأن الأمنية إرادة قدر أيضاً)، فلا يصيب المعبود في رحلة اغترابه السوء، لأن سوءاً يصيب العابد دائماً رهين سوءٍ يصيب المعبود.

ولكن عليه أن يعترف لنفسه الآن أنه لم يستخفّ بوصايا الناموس مرّةً كما استخفّ بها يوم ظنّ أنه انتهى من واجبه نحو الواحة فاستمرأ الإسترخاء. استمرأ الاسترخاء ظنّاً منه أنه إنّما يكافىء نفسه على كفاحه سنوات القيامة التي أنقذت الواحة من الفناء. استمرأ الاسترخاء لأنه ظنّ أن الواجب الذي تشدّق به طوال الوقت هو مجرّد دَيْن دنيوي بإمكان المخلوق أن يسدّده كما تُسدّد السلفة للدائن ليذهب بعدها ليرتمي في أحضان الترف مكافأةً لنفسه جزاء استرضاء الضمير.

غاب الاستنفار فجاء السّهر. أقبل السهر فغاب الفجر. والزلزلة التي نالت الشطر الأول من اليوم لا بدّ أن تصيب الشطر الثاني من اليوم بالخلل أيضاً. فاليقظة مع الضّحى زحزحت

فريضة القيلولة إلى العشيّ الذي يزحف ليلتهم اللحظة الجليلة التي تسبق غياب المعبود في رحلة المجهول.

هذا الانقلاب في حياته دلّل على يسر الزلل في مقابل عسر الاستنفار وهو الذي جرّب ترويض النفس على عمل البطولة، فأيقن أن هذا الفعل لا يختلف عن إماتة النفس وبعثها إلى الحياة من جديد. تلك كانت تعويذة النجاح الذي يصنع الأمجاد، والميتة التي تحقّق ما يسمّيه كهنة الأجيال الميلاد الثاني.

فماذا فعل هو لكي يتّقي الشرّ المحمول في أعطاف الزلل الذي تحدّثت عنه الأمثولة التي تتردّد على الألسن منذ القِدم والقائلة أن صاحب الثراء أعيته الحيلة والوسيلة في كبح جماح تنامي ثروته فاحتكم إلى الحكيم الذي أشار عليه أن يغفو عن لمسة المعبود في أفق الفجر، ويغفل عن طلسم المجهول المطبوع في سحنة المساء، فهجر رسول الحظوظ باب بيته ليتبدّد كل ما امتلك في أجلٍ قصير؟

لقد استهتر بالأمثولة ببسمات الاستهزاء ناسياً أن مثل هذه السِّير لم تكن في عرف القوم مجرّد أمثولات تُروى لتزجية الوقت، أو لإشاعة التسلية في محافل السَّمَر، ولكنها وصايا حكيمة لا تختلف في رسالتها عن وصايا الناموس المهيب «آنهي» الذي لم يصفه الأسلاف بالضياع إلاّ لسريانه في ألسنة الأمم سريان الدّم في شريان البدن، وما رجم إمام النواميس

ورائد الكتب الأسطوري ذاك بنعوت مثل «الضائع»، أو «المفقود» إلاّ حيلة تكشف روح الأسلاف التي لم يستهوِها شيء كما استهواها استخدام الاستعارة، والهوس بالأقنعة، فلا تتكلّم إلاّ رمزاً، ولا تبرهن إلاّ إيماءً، إلى حدّ خلقت فيه لغةً أخرى مجاورة للغة الأمّ جعلتها وقفاً على الكهنة وأصل الحكمة، وهجرت اللغة الأرضية للدهماء وعامّة الناس. ولكن الدهاة لم يقنعوا بهذا الإنجاز أيضاً فلجأوا إلى ابتداع خطاب آخر أكثر إيغالاً في الاستغلاق يستخدم المريد بموجبه سواكن اللّغة وحدها دون الأحرف الصائتة للتعبير عن نواياه ليطلقوا على هذا الخطاب اسم «اللسان المستغلق». عبارة الأقنعة هذه لم تحوّل اللغة إلى سلسلة متصلة من اللغات التي تنفي نفسها هنا لتولد في طورٍ آخر هناك، ولكنّها تحيل الحياة برمّتها رحلةً طويلة وشاقّةً لإماطة اللثام عن حقيقتها التي لم تكن اللغة يوماً سوى روحها المغتربة. وعلّ ابتداع اللثام لإخفاء لا السيماء في الوجه وحسب، ولكن لإخفاء عضلة لئيمة هي اللسان، كان منذ البداية تعبيراً عن هذا الهوس المقدّس بالقناع.

عليه أن يعترف اليوم أنه لم يحسن يوماً أن يقرأ الرموز المدسوسة خلف هذا القناع، كما لم يحسن فكّ الطلسمات في الرسائل المخفيّة في ثنايا الأمثولة، ليدرك الآن بما لا يدع مجالاً للشكّ صدق القول القائل بأن مَنْ لم يتقن فنّ اللغة لن يكتب له أن يتقن فنّ الحياة!

11

ظلّ يتغفّق ويتغمّض ويغالب النعاس فيسمع الهتملات المبهمة ويرى أفناء القوم كأنه في حلم، وليس بين النوم واليقظة. استعان على المسافة بالإدلاج ليلاً لا لأنّ الإسراء في الغلس يجير من هول القيظ في النّهار، ولكن لأنه اعتاد السهر ليلاً والهبوع في النوم فجراً. وها هو ينازل الوسن نزالاً ما أن تبدّى القبس فيصرعه المارد الذي لا يُغلب حتّى يكاد يغيب في دنيا لا يدري عمّا إذا كانت سليلة بادياتٍ، أم أنها من صنع أضغاث الأحلام.

فوق رأسه انتصبت قامة مهيبة ملفوفةً في ثياب الأكابر الزرقاء، ولكنّها معصّبة الحشا بحزّام جلديّ عريض على طريقة المهاجرين الذين اعتادوا أن يعبروا في أسفارهم راجلين. تابعه بين النوم واليقظة وهو يطوف حوله ثمّ يتوقّف لينحني حتى لامس رأسه بطرف لثامه. غمغم فوق رأسه بعبارة كأنّه يقرأ تعويذة، وعندما لم يجبه انتصب مرّة أخرى، أو هذا ما تهيّأ له في تلك الإغفاءة المخجلة. اختفى بعدها الشبح وساد السكون.

لا يدري كم من الوقت استغرقت غيبته بعد ذلك. ولكنّه لن ينسى الألم الذي انتشله من ميتته الصغرى تلك ليجد نفسه يعوي بصوتٍ منكرٍ كأنّه صوت الواعية، ويفزّ من مكانه كمن لدغته حيّة. فتح عينيه وهو يتلوّى من الألم فأبصر قبالته مخلوقاً كريهاً يتشبّث بيده اليسرى ليعتصر أصابعه المبتورة بغلّ جنوني. كان يلفظ سباباً بذيئاً، ويتوعّد الأسير الذي بين يديه بصنوف العذاب، ولم يفلح الشقيّ مزّار في التخلّص من قبضته إلا في اللحظة التي لم يعد يحسّ فيها بالوجع من فرط الوجع فسدد لخصمه لطمة بقبضته اليمنى فتدعدع الرجل في وقفته وتراجع إلى الوراء مفلتاً الكفّ المعطوبة من قبضته الحديدية. تطلّع مزّار إلى أصابعه الدامية وهو يرتجف بشدة من فرط الألم. ولكن الرجل لم يستسلم. تحسس اللطمة على خدّه الأيسر، ثم صاح وهو يعدّ العدّة لعدوانٍ جديد:

ـ يا جعسوس! يا أبتر! يا خسّيس! لم يكفك أن تتسلل لتشعل الحرائق في ديارنا، ولكنك تمدّ يدك لتلطم وجوه الأعزّة أيضاً؟

سحب من حزامه سوطاً ليلسعه به. ولكن مزّار اختطف لسان الصوت في الهواء قبل أن يهوي على جسده وتشبّث به بيده اليمنى. أزبد الرجل واشتعل غضباً، ولكن مزّار أحكم قبضته حول لسان السوط الشره. تجاذبا السوط في اللحظة التي

لاحظ فيها مزّار كيف تتدافع حولهما أخلاط الدهماء: تجّار الأسواق، وأصحاب القوافل، وشذّاذ الآفاق، وأسراب الرعيان، وحواصب الأعيان.

لحظتها فقط اكتشف مزّار أن النوم خذله هذه المرّة أيضاً فأفلت مشاهدة طلوع المعبود في رحلة العودة الأبدية إلى سماء الصحراء، وها هو الشعاع يغسل الدنيا، وبوّابة الواحة مشرّعة على مصراعيها، والأنام يسوقون أنعامهم، ويتبادلون مع الأقوام الصفقات كما اعتادوا أن يفعلوا مع مطلع المعبود في إطلالة كلّ يوم. أمّا هو فعليه أن يدفع ثمن غفلته كما دفعها في كل مرّة منذ ظنّ أنه انتهى من الواجب؛ كأنّ الواجب حاجة من حوائج الدنيا يمكن أن تُقضى كما تُقضى الحوائج. وها هو القصاص في انتظاره يأتي مرفوقاً بكل يقظة تعقب الغفلة عن سيماء المعبود، كأنّ عليه أن يتلقّى ضروب القصاص المجنون جزاء نومه. كأنّ عليه أن يتخذ من النوم منذ اليوم عدوّه إذا شاء أن ينال من جلالة المجهول رأفةً. كأنّ التقاعس عن ملاقاة المعبود في ميتة كل يوم وبعث لك يوم هو تجديف في حقّ واجبٍ آخر لم يخطر له على بال.

تجاذب مع الوحش السوط في كرّ وفرّ استثار سخرية الناس. كان فائراً. فورة الغضب أنسته الوجع في كفّه الجريحة فاستعان بها برغم نزيف الأصابع. في مسيرة الشدّ والجذب كان صوت الرجل يعلو من حين لآخر بنداء:

ـ الأعوان! أين الأعوان؟

ولكن لم يستجب لندائه أحد، كما لم يهرع لنجدته أحد باستثناء جموع الدُّفّاع الذين تحلّقوا حولهما لإرواء الفضول أو طمعاً في مشاهدة موقف يثير الضحك.

استجمع الرجل كل قواه، بعد أن بلغ سعاره الذروة، وهَمَّ بانتشال السوط من كفّ الخصم في اللحظة التي وقف فيها الرجل المكابر، الملفوف بلباس الأعيان، المطوّق الخصر بالحزام الجلديّ العريض الذي خُيّل لمزّار أنه رآه يقف فوق رأسه ليتبيّنه في المنام، أو في تأرجحه في برزخٍ بين اليقظة والمنام.

تشبّث الرجل بالسوط من وسط امتداده ليخاطب صاحب السوط بصوت اليقين:

ـ لا يجلد بالسياط إلاّ عبد عبيد، أو صاحب زللٍ أُدين بخطيئة!

هَمَّ صاحب السوط أن يطلق في وجه الرجل سبّة، ولكنه استدرك ما أن تبيّن سيماء الرجل:

ـ لا تتدخّل يا صاحب الجاه لأنّك لا تدري أنّك تجير بشفاعتك جاسوساً دسّه صاحب «تيرا» في أسوارنا ليشعل نار الفتنة في ديارنا!

ومَضَ في مقلة صاحب الجاه إيماء بسمة، ولكن صاحب

السوط تخلّى عن السوط فتخلّى عنه مزّار أيضاً ليقع في قبضة الوسيط الغامض الذي راق لصاحب السوط أن ينعته بلقب إكبار هو «صاحب الجاه».

قال صاحب الإكبار الملقّب بـ «صاحب الجاه»:

- ما أعلمه أن هذا الرجل طريد «تيرا»، وليس جاسوس «تيرا» كما تقول!

زأر صاحب السوط:

- هذا ما يدّعيه هذا اللئيم، ولكن الحقيقة هي أنه ارتضى أن يحمل رسالة الخراب للواحات المجاورة سداداً لدَيْن!

استنكر الرجل:

- يحمل رسالة خراب سداداً لدين؟

- بلى يا صاحب الجاه! المعلومات التي لدينا تقول أنه قبل أن يتولّى أمر زرع الخراب في واحات الصحراء كلّها مقابل أن يفوز من صاحب «تيرا» الجديد بالعفو!

- وهل أذنب هذا الطريد الشقيّ المبتور الأصابع في حقّ صاحب «تيرا» حتى يفوز منه بالغفران الذي تتحدّث عنه؟!

جعجع الأفناء بالضحك كأنّهم نالوا بُغيتهم أخيراً فاستشعروا السعادة.

ترافع صاحب السوط:

ـ سيرة الأصابع المبتورة حيلة لن تنطلي علينا، لأن صاحب «تيرا» يدري أننا سوف نشكّ في نوايا رسوله إذا لم يقبل على ديارنا في جلد المخلوق الذي لحقه الجور!

زفر بسخاء ثم أضاف:

ـ أنت لا تعلم يا صاحب الجاه نوايا صاحب «تيرا» لأن أسفارك لن تسمح لك بأن تعلم حتى لو شئت أن تعلم. صاحب «تيرا» يا سيدي، يريد أن يستأثر بالمجد من دون كل أهل المجد، لأنه ينوي أن ينصّب نفسه على الصحراء معبوداً بعد أن يجعل من واحة «تيرا» حاضرة الصحراء الأولى، والدليل على سوء نواياه قيامه منذ يومين باستبدال اسم «تيرا» الجليل باسم «تورا»!

تطلّع صاحب الجاه إلى الرجل بفضول كأنه يتوضّحه. قال وهو ما يزال يتشبّث بالسوط:

ـ أريد أن أنجز معك صفقة!

ـ صفقة؟

ـ نحن أهل التجارة كما تعلم لا نعرف لغةً غير لغة الصفقة!

تردّد الرجل. ابتسم من وراء لثامه بسمة جشع فضحتها مقلته الماكرة، فابتسم له صاحب الجاه مشجّعاً:

ـ أريدك أن تهبني هذا الرجل كما وهبتني في الماضي رجالاً كثيرين مقابل..

ولكن الرجل سحب بسمته فجأة ليصيح:

- كلاّ! كلاّ يا صاحب الجاه. أستطيع أن أهبك ابني بلا مقابل إذا شئت، ولكني لن أستطيع أن أهبك هذا الرجل حتّى لو ملأت حجري تبراً!

حدجه صاحب الجاه بنظرة ذات معنى ثم مال برأسه نحوه ليتمتم:

- حقّاً؟

لوّح صاحب السوط بيده في الهواء مشيحاً ببصره جانباً. قال:

- تستطيع يا صاحب الفضل والجاه أن تستوهب هذا الداهية من مولانا وليّ الأمر، ولكن ليس منّي!

12

قال مزّار في حضرة صاحب «إتران»:

- يحزنني أن آتيك اليوم لاجئاً فأجد نفسي أرزح في الأغلال في وقتٍ ظننت فيه أني سأرفل في النعيم!

استوضحه وليّ أمر الواحة بنظرة عابرة، ثمّ غمر وجهه بهواء مروحة أنيقة منمنمة بالخرز ومجدولة الأطراف بأصواف منوّعة الألوان:

- لم أكن لأفعل لو لم يبلغني نبأ اليقين!

- نبأ اليقين؟

- بلغني أنك مع مسخ الظلام في حلفٍ أكيد!

قهقه مزّار برغم الهمّ واليأس والخجل والجوع:

- أيّ حلفٍ يمكن أن يستقيم بين الجلاّد والضحية؟

- لم أكن لأصدّق لولا الأدلّة!

حدّق فيه مزّار بذهول، ثمّ لوّح بيده الجريحة في الهواء محتجّاً:

ـ أيّة أدلّة؟

غمر الرجل وجهه بموجة هواء جديدة من مروحته النفيسة فلمح مزّار كيف تغامزت عروق الذهب في نمنمة الخياط الذي يشدّ صفوف الخرز:

ـ في ديارنا شاهد فرّ من قبضة مسخ الظلام يقول أنك رسوله!

لوّح مزّار بيده الملفوفة في الرباط كأنها راية البيّنة ثم صاح:

ـ شاهدك هو رسول مسخ الظلام لا أنا، والدليل هو هذه اليد المبتورة بنصل عدوانه!

ابتسم صاحب «إتران» من مجلسه الوثير بين النمارق ثم همهم باستخفاف:

ـ كان يمكن أن يكون بتر الأصابع دليلاً بيّناً حقّاً لو كنت الوحيد الذي نال هذه البصمة!

حدجه مزّار بدهشة. سكت كأنّ عضلة اللسان فرّت من بين فكّيه. ابتلع ريقه بعسر قبل أن يهمس:

ـ ماذا؟

عاد يزدرد ريقه بعسر:

ـ تريد أن تقول..

سكت مرّة أخرى فأكمل صاحب الواحة بلهجة غلبة:

ـ هل رأيت؟ صاحبك استهان بك عندما لم يخبرك بأن بتر الأصابع هو علامة!

ـ علامة؟

ـ بصمة. بتر الأصابع في ناموسه الجديد بمثابة الختم!

ـ لا أصدّق!

ـ صدّق أو لا تصدّق، ولكن إسم «الأبتر» لن يكون لك منذ اليوم مجرّد لقب، ولكنه هويّة عليك أن تتباهى بها!

أعقب العبارة بضحكة ارتجّ لها بدنه كلّه حتّى سقط لثامه عن فمه فبرزت أسنانه. أضاف:

ـ يا لها من بدعة!

استفهم مزّار بإيماءة طافت في المقلة برغم شلل عضلة اللسان فأوضح صاحب المروحة:

ـ أعني هويّة البتر هذه. لقد أراد بعمل الهمج هذا أن يكون لأبناء «تيرا» جواز مرور يميّزهم عن بقيّة الأمم، ولكن الختم الفظيع انقلب وصمة عار في أبدان أبناء الواحة، لأنّ ختم النحس هذا يسَّر لأعدائه الاهتداء إلى جواسيسه!

أخيراً تساءل مزّار:

ـ لا أعرف كيف يمكن لبصمة القصاص هذه أن تكون دليلاً على هوية!

ـ هذا طور غريب صغير في سلسلة أطوار أكثر غرابة!

هرش مزّار عمامته غائباً؛ همهم كأنه يحدّث نفسه:

ـ ولكن هل يُعقل أن ينكّل بأبناء «تيرا» الأبرياء كما نكّل بي؟

ـ إذا عمّ الجور عمّت المساواة. وإذا عمّت المساواة عمّ العدل. وإذا عمّ العدل تحقّق الأمان!

ـ هل من العدل أن ينزعني ملكي، ولا يكتفي بذلك ولكنه يبتر أصابع يدي، ولا يكتفي بهذا العمل الوحشيّ أيضاً، ولكنه ينتحل اسمي انتحالاً ليلصق بي لعنةً تلاحقني بين الناس كوصمة العار بدل اسمي الذي نلته إرثاً عن أجدادي؟

ترجرج الرجل القابع بين النمارق بضحكة منكرة أخرى ردّد:

ـ لن تستطيع أن تتنصل يا «مزّار» الأمس من هويّة اليوم، لأنها ليست هوية مبثوثة في رقعة، أو مزبورة في سيرة، أو مروية على لسان، كهويّة الأمس، ولكنّها هويّة مكتوبة بدم الوريد ومستقطعة من لحم الجسد. فهل تخيّلت يوماً أنك ستحيا مصيراً كهذا؟

هتف مزّار وهو يغالب إحساساً بالمسّ:

ـ لا تسخر منّي يا «ميدي» لا تسخر، فقد كنت يوماً صديقي! أم أنك نسيت أن من أنقذ واحتك من الهلاك عطشاً هو هذا الأسير الشقيّ الذي لم يحرّره سجّانك من قيده إلاّ منذ قليل

عندما أدخله عليك. أم أن «ميدي» لم يعد «ميدي» لمجرّد أن الأقدار تخلّت عن مريده القديم؟

التقط أنفاسه. أضاف:

ـ أريدك الآن أن تسمل عيني، وتصم أذني، وتجدع أنفي، لا لنيّتي في أن أبرهن لك على براءتي من التهمة الموجهة إليّ، ولكن لكي تحرّرني من هويّة الزور التي أُلصقت بي زوراً؟

تضاحك «ميدي»، من مجلسه الوثير بين النمارق، ثمّ لوّح أمام وجهه بمروحته المطعمة بعروق الذهب قبل أن يستهزىء:

ـ لن تستطيع أن تتنصّل من هويّة اللعنة حتى لو سملت عينيك، وصلمت أذنك، وجدعت أنفك، لأن ختم الهوية مطبوع في كفّك لا في وجهك!

عاد يتخضخض بالضحك فصرخ مزّار باكياً:

ـ أريدك في هذه الحال أن تجتثّ ذراعي كلّها!

توقّف «ميدي» عن الضحك. استشرف سيماء مريده القديم بفضول:

ـ هل تظنّ أن قطع الذراع يمكن أن يخلصك من هويّة اللعنة؟

أجاب مزّار راجفاً:

ـ يقيناً! يقيناً!

ولكن «ميدي» خيّب ظنّه:

ـ أخشى أن قطع الذراع سوف يكون تأكيداً للهويّة!

ـ ماذا؟

ـ لن يكون تأكيداً، وحسب، أيّها الشقيّ مزّار، ولكن سوف ينقلب تضخيماً للهوية!

ـ كيف؟ كيف..

قاطعه «ميدي»:

ـ لأنه محاولة ساذجة لمحو الأثر لن تنطلي على أحد.

ـ اللعنة!

ـ ثمّ لا تنسَ أن الهوية لم تعد تسكن البتر، ولكنّها تسللت إلى القلب. هل تدري لماذا؟

لم ينتظر جواباً:

ـ لأنّ بتر الإصبع في عرف الأسلاف ليس قصاصاً موجّهاً للجسد، ولكنه رسالة موجّهة إلى الروح، لأنه إهانة، لأنه عار لن يفلح في غسله حتّى الدم!

هتمل مزّار برطانة مجهولة في حين أضاف «ميدي»:

ـ ختم الهوية لن يمحوه التنكيل بأعضاء الجسد بعد اليوم، يا صديقي الشقي مزّار، لأن الجرح غار بعيداً في الروح. بلى! بلى. روحك هي التي أصابها مسخ الظلام بنصل البتر، لا أصابع معلّقة في عظمة الكتف عبر ماسورة الذراع!

أغمض الأسير عينيه. أسند رأسه بيده الجريحة كأنه يغالب الدوار. توسّل كطفلٍ تيتّم:

ـ هل لي أن أجلس في حضرة «ميدي» القديم؟

أومأ «ميدي» برأسه علامة الإيجاب فانهار مزّار أرضاً. صمت لحظات قبل يهتمل:

ـ ماذا يمكن أن يعنيه هذا الجنون يا ترى؟

قَرَعَ «ميدي» البساط بحرف المروحة كأنّه يلهو:

ـ في خلط الحابل بالنّابل يكمن الخلاص، لأن الخلط تضييع للأثر!

ـ الحق أنّي لا أفهم.

ـ خلط الحابل بالنابل خلط للحقيقة بالأكذوبة، وخلط الحقيقة بالأكذوبة وسيلة الطغيان لتحقيق الغاية!

هزّ مزّار رأسه عجباً، فأضاف «ميدي»:

ـ اللّموم يدري كما لا يدري أحد أن دمغ الأتباع والمريدين وحدهم بالهويّة الوحشية عمل يمكن أن يعيق تحقيق المكيدة، لأن الأوغاد عندها لن يستطيعوا أن يكونوا له جواسيس في ديار الأغراب، ولن يفلحوا في القيام بدور الرسل لترويج الوصيّة، لأن العلامة في أبدانهم سوف تكشفهم. ولهذا لجأ لختم الأبرياء أيضاً بوسم الهويّة الهمجيّة تغييباً لحقيقة المردة، وتعميماً

للبلبلة، لأن البراءة وحدها تستطيع أن تفتدي الخطيئة كما تفتدي الحقيقة قرينتها الأكذوبة!

ـ تريد أن تقول أن على الأبرياء دائماً أن يرتضوا قدرهم كضحيّة!

قرع «ميدي» البساط بمروحته الذهبية بعصبيّة:

ـ البراءة كانت منذ الأزل قرباناً، وأظنّها ستبقى كذلك إلى الأبد.

انتصب بينهما صمت. تكلّم مزّار بنبرة يأس:

ـ أقول لك الحقّ: ما عدت أعبأ بفقدان ملكي، ولا بفقدان امرأتي، ولا بفقدان ولدي ووريث عرشي، ولا بفقدان خلاّني. ما يهمّني منذ اليوم هو ألاّ أفقد، بسبب جنون الوغد، إسمي!

وافقه «ميدي»:

ـ الاسم هويّة. والأعسر من كل شيء في هذه الدنيا أن تنقلب الهويّة لعنة!

سكت لحظة. أضاف:

ـ لم أعتقلك إرواءً لظمأ نكران الإحسان كما قد تظنّ، ولكنّي فعلت ما فعلت دفاعاً عن النفس!

استنكر مزّار:

ـ دفاعاً عن النفس؟!

تبسَّم الرجل قبل أن يوضح:

ـ فعلت ما فعلت لدرء الوباء.

تعجّب مزّار:

ـ الوباء؟

ـ الوباء بالطبع. أم أنّك تشكّ في حقيقة هذا الجنس من الجنون كأسوأ ضروب الوباء؟

تمتم مزّار:

ـ أنا بريء!

ـ البراءة تشترط وجود البرهان!

ـ ألن تصلح سيرتي القديمة شفيعاً يا «ميدي»؟

ضرب «ميدي» البساط بحرف المروحة الذهبية بقوّة، ولكنه استدرك فرمى بها جانباً. شبك يديه ببعضهما البعض. سرح ببصره إلى أعلى. قال بغموض:

ـ هذا ما أتمنّاه أيضاً، ولكن الناموس يدعوني لاستبعاد الأماني والقبول بما يمليه العُرف.

سكت لحظة. أضاف:

ـ بالأمس حبس عنّا الماء وحوّل المجرى لإرواء مناجم الملح، لأنّي رفضت الامتثال لنيّته في زيادة سعر الإتاوة السنوية بمقدار ثلاثة أضعاف!

استنكر مزّار:

ـ ثلاثة أضعاف؟

ـ ليته اكتفى بحرمان «إتران» من المياه، ولكنّه بعث ببعض الممسوسين المطبوعين مثلك بهويّة النحوس فأشعلوا الحرائق في مخازن الحبوب ظنّاً منه أنه يستطيع أن يجبرني على الركوع بعمله الجبان!

تابعه مزّار فاغر الفم. ولكن «ميدي» لم يرحمه:

ـ لقد تمكّن من الفرار اثنان من تلك العصابة، وأفلحنا في القبض على الثالث!

زفر بضيق ليضيف:

ـ عرفنا كيف ننتزع الاعتراف من الثالث. فهل تدري ماذا قال الخسّيس في سيرة اعترافاته؟

امتقعت سيماء مزّار بسحابة من الشحوب، ولكنه ظلّ فاغر الفم، يحملق في الفراغ كالأبله. قال «ميدي»:

ـ قال أن مسخ المسوخ ذاك يعدّ العدّة لغزو «إتران»!

لفظ مزّار استنكاره في كلمة واحدة:

ـ لا!

«ميدي» أيضاً استنجد بالفراغ ليخفي انفعاله، تحصّن بالبرود ليقول:

ـ هذا ليس كل شيء.

تململ في جلسته، ولكنه تكلّم من موقعه المعلّق في الفراغ:

ـ المجرم قال أن «إتران» ما هي إلاّ المرحلة الأولى في مسيرة وليّ نعمته نحو غايته في امتلاك الصحراء!

عاد مزّار يستنكر:

ـ امتلاك الصحراء؟

ـ بعد الاستيلاء على «إتران» سيأتي دور «إمران»، بعد الاستيلاء على «إمران»..

قاطعه مزّار بهمهمة:

ـ الويل لمن ظنّ أنه يستطيع أن يمتلك الصحراء!

استمهله «ميدي» بإشارة:

ـ أعرف أن ما أرويه سيبدو لك كابوساً صعب التصديق..

ولكن مزّار ترنّح كأنّه يستجيب في رقصه للحنٍ مجهول من لحون الحنين:

ـ الويل لمن ظنّ أنه يستطيع أن يمتلك الصحراء!

ظلّ يجدب يمنةً ويسرةً مردّداً أغنيته حتّى أيقن «ميدي» أن ملك «تيرا» القديم قد أُصيب بمسّ!

13

ـ فهل تظنّ أن من حقّي أن أخلي سبيلك تلبيةً لنداءٍ مفترض بحسن النيّة بعد كلّ ما أسمعتك من أهوال مبيّتة؟

كان مزّار ما يزال يترنّح ترنّح أهل الحنين عندما رجمه «ميدي» بسؤاله فلم ينتبه في حمّى وَجْدِهِ. تفحّصه صاحب الواحة بنظرة الشّكّ في اللحظة التي دخل فيها الحاجب. كان نحيلاً نحول فزّاعةٍ ترتدي أسمالاً. رمق الأسير في نوبة مسّه بفضول قبل أن يجتازه لينحني أمام وليّ أمره. همهم له بهمسٍ مكتوم فأومأ الوليّ بعمامته علامة الإيجاب. خرج الحاجب النحيل نحول الطيف ليأذن بدخول رجلٍ عرف فيه مزّار طيفاً آخر: كان الرجل المهيب نفسه الذي زاره بين النوم واليقظة، ثمّ برز كرسول قدر في اللحظة التي خارت فيها قواه وكاد يفلت السوط المفترس من يده أثناء العراك مع سجّان «إتران» المسعور.

عَبَر بخطوات واثقة تليق بمن احترف الأسفار، ولكنه تمهّل

عندما جاور الأسير المكوّم حول نفسه كالقنفذ كأنه ينوي أن ينحني ليأخذ بيده. ولكنه تراجع ومضى إلى الأمام حتّى وقف في حضرة صاحب الواحة الذي هَبَّ واقفاً فاتحاً ذراعيه في نيّة لاعتناق ضيفه الجليل. ولكن الضيف توقّف فجأة ليجتنب العناق، فاستفهم «ميدي» بإيماءة استغراب. لحظتها تكلّم الرجل مستخدماً لغة الاستعارة على طريقة القدماء:

ـ لن أتنازل لأنزل أرضك حتّى..

قطع العبارة عمداً ليتساءل:

ـ هل يستطيع صديقي المبجّل «ميدي» أن يكمل العبارة حتّى لا يسيء بنا أسيرك الظنون فيقول أنّي جئتك لتبادل الأحاجي في زمن البليّة الذي لم يناسب يوماً تبادل الأحاجي؟

ابتسم «ميدي» بتسامح. ثمّ رَزَّ فيه صوت عميق كأنّ عبارة الزائر أيقظت فيه شجوناً حميمةً منسيّة. لوّح بكلتا يديه في الهواء ليعقب حركة اليدين بصوت كالزئير:

ـ لن أتنازل لأنزل أرضك حتى تفكّ القيد من يدي حبيبي «وانّس»..

تلألأت مقلتاه بالبلل وهو يصيح:

ـ أليست هذه عبارة أولى في مرافعة «تانّس» عن شقيقها «وانّس» التي نطقت بها من عليائها المعلّقة بين السماء والأرض؟

هتف الضيف:

ـ أحسنت! لم أشكّ يوماً أن حياة الاسترخاء التي كانت السبب في نكبة أسيرنا المبجّل أخفقت في أن تصيب فيك الروح ما دمتَ لم تنسَ ملحمة الصحراء كما نَسِيَها الكثيرون.

عاد «ميدي» يشرّع ذراعيه لاعتناق الضيف:

ـ ليس بطولة أن أغسل الروح بين الحين والآخر من أعفان الاستقرار بترديد أبيات ملحمة الأجيال، ولكن البطولة أن تشفع لي «تانّس» في احتضان قريني القديم كما شفعت لحبيبها «وانس» في مرافعتها أمام سلطان الصحراء!

ظلّت ذراعاه معلّقتان في الفراغ، لأن الضيف خيّب ظنّه هذه المرة أيضاً:

ـ هذا يعتمد عمّا إذا كان سلطان «إتران» سيستجيب لنداء «تانّس» أيضاً فيفرج عن الأسير الذي بين يديه!

سحب «ميدي» ذراعيه، ثمّ ابتسم بحِلْم يعرف أنّه لم يزد أصحاب السلطان إلاّ مجداً، وأرباب الحُسن إلاّ حسناً:

ـ لا أخالك تريدني أن أهبك أسيري دون أن تسمع حُجّتي في حبسه!

ـ لم أتخيل يوماً أن إمام النزاهة «ميدي» يمكن أن يقدم على اعتقال إنسانٍ استجار به!

ـ هل استجار بي؟ من يستطيع أن يبرهن أن هذا الرجل أقبل ليستجير بي؟

تأمّله الضيف بعينين ثاقبتين كعيني صقر. قال بخيبة أمل:

ـ إذا كنت لا تصدّق شهادتي ففي قافلتي عشرات الشهود الذين سيشهدون ببراءة هذا الرجل من تهمة محاولة التسلّل إلى واحتك تسلّل اللص!

ابتسم «ميدي»، قال بنبرة كالرّجاء:

ـ هل لضيفي أن يقبل دعوتي بالجلوس كي أحدّثه بما نقله لي رجالي؟

تردّد الزائر قليلاً. ولكنه ما لبث أن استكبر:

ـ لن أجلس في ديارك، ولن أذوق طعماً لمائك، ولا لملحك، ما لم تهبني دم هذا الرجل!

تطلّع إليه صاحب الواحة بدهشة:

ـ يدهشني حرصك على تبرئة هذا الرجل.

ـ حرصي على تبرئة هذا الرجل اليوم هو حرصي على تخليص رجلٍ من العار بالأمس!

شعّت سيماء «ميدي» بألقٍ مفاجىء:

ـ لا أحسب أن تخليصي من الإفلاس بالأمس عمل يمكن أن يقارن بتخليص مجرم من حكم العدالة!

ـ إفلاس الملوك عار، وتخليصهم من هذا العار إنقاذ لعروشهم، ولهذا فهو عمل من قبيل المأثرة التي لن أتباهى بها

يوماً. أمّا تحرير أَسْرَى لم تثبت العدالة إدانتهم بجرم فذاك هو الواجب الذي لن أعتبره مأثرة برغم أنه في حقيقته أنبل أجناس المآثر.

سكت «ميدي». على شفتيه رفّت بسمة استحياء. وكي يعينه ضيفه على التحرّر من الحرج اقترح:

ـ بأي ثمنٍ أستطيع أن أفتديه؟

رمقه صاحب الواحة بدهشة:

ـ لا يليق أن نحتكم إلى منطق الصفقة في حضور الأسير.

ـ هذا الأسير، إذا كان اليوم أسيراً، فهو بالأمس كان واحداً منّا، بل كان صاحب الأفضال علينا. فهل تكفي ديوني عليك مجتمعة ثمناً لافتداء المبجّل مزّار؟

لمع في عين «ميدي» ألق مريب:

ـ هل قلتَ الديون كلّها؟

أجاب الرجل بيقين:

ـ كلّها!

ـ ولكنّه مال رهيب!

ـ ألا يقال أن أنبل مال هو ذلك المال الذي نشتري به حريّتنا، أو ذلك المال الذي نجير به من استجار بنا؟

سكت لحظة ثم أضاف:

ـ أنت لا تعلم أيها العزيز «ميدي» أن كلّ ما كسبته من أموال إنما يرجع الفضل فيه لهذا الرجل!

حدجه «ميدي» بشكّ:

ـ عجباً! وبرغم ذلك لم يسبق لك أن حدثتني ولا مرّة عن مأثرة مزّار هذه!

ـ ليس الاعتراف بالإحسان أن نثرثر بسيرة الإحسان.

خطا «ميدي» في المكان. تسكّع حتى بلغ الشبّاك المطلّ على البستان، ثم عاد أدراجه. قال:

ـ ولكن ما قيمة الأموال، يا صديقي «بسّا»، إذا قورن بالأمان؟

تعجّب «بسّا»:

ـ الأمان؟

ـ بلى! الأمان. أنت لا تدري مدى خطورة الاستهانة بمخلوقٍ مختومٍ بهويّة الأبتر هذه الأيام!

ـ هراء!

ـ يقال إن آخر بدعة تفتّقت عنها عبقريّته هي قيامه ببتر أصابعه أسوةً برعيّته!

أطلق ضحكة ساخرة ثم أضاف:

ـ فعل ذلك لتضييع الأثر والظهور بمظهر الضحيّة إذا انقلب المنقلب وحلّت ساعة الحساب.. ها.. ها..

قاطعه «بسًّا» بنفاذ صبر:

ـ دعك من هذا وأخبرني بكلمتك الأخيرة بشأن الصفقة!

ـ لا أكره أهل التجارة إلاّ لهوسهم في استخدام هذه الكلمة القبيحة. ألا يمكن استبدالها بكلمة أخرى أيها العزيز «بسًّا»؟

ـ نحن نستخدم كلمة صفقة لأنّنا نريد أن نسمّي الأشياء بأسمائها الحقيقية. إنها قبيحة حقّاً لأنها مكيدة. ولكن ما يشفع لها أنّها مكيدة بعلم الطرفين لا مكيدة منسوجة في الخفاء من طرفٍ ضدّ طرف كما يحدث في قصور أصحاب الملك!

تضاحك «ميدي» بمكر وهو يفرّك يديه بعد أن مسّه قبس إلهام:

ـ حسناً. فلنلجأ إلى ناموس الصفقة ما دمت لا ترى في الاحتكام إلى الصفقة إهانةً. أريدك أن تدفع عنّي فرق الإتاوة التي طالبني بها مسخ «تيرا» أخيراً ويريد أن يجعل منها مبرّراً للاستيلاء على ملكي!

سكت. أضاف دون أن يتطلّع إلى ضيفه:

ـ هذا إلى جانب إسقاط الدَّيْن القديم بالطبع!

هيمن صمت ثقيل. تبادل الرجلان نظرة. ابتسم «ميدي»

أخيراً، ولكن «بسّا» لم ينبس. خطا خطوتين. انحنى فوقه. أخذ بيده. أوقفه على قدميه. قاده نحو باب الخروج دون أن يلتفت نحو شريك الصفقة المنتصب في قلب الدّار وهو يشيّعه ببسمة ذات معنى.

الأبتر وحده كان يرقب ما يحدث طوال الوقت باغتراب من يشهد كابوساً في غيبوبة خرافيّة ظلّت تتواصل في سلسلة من الفصول التي بدأت ببتر الأصابع وانتهت بالخروج من باب المعتقل برفقة رسول القدر ذاك. تأمل الرجل المهيب المطوّق بحزام الجلد المنمنم بالرموز السحريّة قبل أن يميل نحو رسول الخلاص ليهنم بصوت واهن نال منه اليأس والذلّ والجوع:

ـ من أنت بحقّ السماوات السبع؟!

14

ـ من أنت بحق السماوات السّبع؟

عاد مزّار يتساءل ما أن تلقّفهما العراء المؤدّي إلى ساحة السوق، ولكن «بسَّا» لم يجب. كان يمشي إلى جواره بتلك الخطوات الواثقة، الواسعة، التي يمكن مقارنتها بالجري، لأنّ أولئك الذين احترفوا الأسفار وحدهم ينسون الفرق بين المشي والهرولة، فيركضون في سعيهم ركضاً من حيث يظنّون أنّهم يمشون.

أفضى العراء إلى ساحة السوق التي تبدّت عراءً أيضاً في ذلك الوقت المتأخر من النهار. عراء السوق تواصل في عراءٍ آخر ينتهي ببوّابة السور. بهذه البوّابة تعلّق بصر المهاجر الأبدي الذي سار إلى جوار مزّار بهرجلته المكابرة. عند البوّابة التي أصابت مزّار بالغثيان ما أن وقع بصره على بابها الكئيب نطق «بَسَّا» بعبارة أخرى بدل أن يجيب على سؤال الهويّة:

ـ ماذا تقول وصيّة الأسلاف أيها المبجّل مزّار؟ إذا قُدّر لك أن تدخل الواحة فأدخلها بقدميك، ولكن اهجرها برأسك!

همهم مزّار:

ـ خطيئتي تكمن في استهانتي بهذه الوصيّة، وإلا لما اضطرّ جحجاح الأغراب أن يشتري حريّتي اليوم بمثل هذا الثمن الفاحش من إنسانٍ أحسنتُ له بالأمس، فأنكرني وأنكر إحساني!

ـ خطيئة أن ننتظر امتناناً عن إحسان.

ـ ما آلمني أكثر ليس أن ينكرني، ولكن أن يمضي في جشعه إلى أبعد فيستثمر وقفتي في قبضته ليبيعني لك بمثل هذا الثمن الذي يكفي لشراء واحته ثلاث مرات لا مرّة واحدة!

في مدخل الواحة تسكّع بعض الأحراس. خارج البوّابة سرح العراء الفسيح المشطور بقناة الماء إلى نصفين: نصف يستلقي شمالاً تتناثر فوقه بعض النباتات البريّة ليتحوّل في البُعد حزيزاً كئيباً يتماهى في صحراء قاسية تعتليها مرتفعات يغزوها الصلدم تترامى إلى أن تتواصل في السلسلة الجبلية النائية. أمّا النصف الثاني فيتمدّد جنوباً مكسوّاً بحبيبات الحصباء، مستوياً، تتخلّله سيوف الوعوثة التي تلين كلما فرّت بها المسافة نحو صحراء رمليّة مكابرة تتطاول في الأفق كأنها تنوي أن تلتحق بالسماء العارية من الغيم دوماً، ولكن قواها تخذلها فلا تجد سبيلاً للتواصل مع العُلى إلا أن تنزف كثبانها الذهبية نثاراً كهباء التّبر يرتفع في البدء بخفر، مستجيباً لنداء الريح الخفيف، الخفيّ كأنّه الحفيف، ولكنه يتصاعد فوق الهامات المهيبة

بذرّات محبوكةٍ بخيوط تتبدّى في الضياء شقية، تغزو الفراغ بأجنحة ذهبية شفافة لا تعمّر طويلاً، لأن الهشاشة تخذلها فينقطع بها الحبل، فتتشتت، وتتبدّد، وتهوي تعبيراً عن هشاشة كل الأشياء التي لا تستحي أن تتباهى بحضورها في رحاب الصحراء، برغم أن السيوف الرملية، في حِلْفها الخالد مع الريح، لا تستسلم، ولكنها لا تلبث أن تبدع من جِرمها الشامخ رسالةً جديدة!

تلقفهما العراء المؤدي إلى خلاء الصلد. قال «بسّا»:

ـ لا ينبغي أن يؤلمك عمل «ميدي» لأن عِرق الأمة في الرجل لا بدّ أن يستيقظ يوماً!

تعجّب مزّار:

ـ عِرق الأمة؟

ـ ألا تدري أن صاحبك القديم يرجع بأجداده إلى سلالة العبيد؟

تطلّع إليه مزّار بدهشة:

ـ ماذا يقول ربّ الإحسان الجليل؟

ـ كلّ مالك امتلك في هذه الصحراء اليوم واحةً فهو عبد عبيد أم عبد يحاول أن يمحو أصول عبوديّته!

ـ عجباً! وكيف يمكن لعبدٍ أن يمحو أصل عبوديّته؟

سكت المهاجر في خطوه الحثيث نحو الأفق البعيد.

أجاب:

ـ باتخاذ نساء السادة قرينات ينجب منهنّ الذرية ظنّاً منه أن العبودية عبودية اللون لا عبودية الروح!

سكت مزّار قليلاً. تساءل:

ـ أيعني هذا أن عليّ أن أشكّ في حقيقة عِرقي أيضاً يا رب الإحسان الجليل؟

ـ أنت صاحب الواحة الوحيد في هذه الصحراء الذي لن يكون عليه أن يشكّ في نبل الأصل، وما الإطاحة بعرشك أخيراً إلاّ البرهان الدّال على حقيقتك كاستثناء يثبت القاعدة!

توقّف مزّار فجأة، ولكن العابر مضى، فلاحقه الرفيق ركضاً:

ـ لا أعرف لماذا على سلالة العبيد أن ترث مُلك الأسياد في هذه الصحراء؟

أجاب المهاجر بروح أهل الفطرة الذين لا يعجزهم القول:

ـ لأن الحكم عملٌ قبيح لا يليق إلا بالعبيد!

ـ ماذا؟

ـ صاحب النّبل إذا كان حقيقيّاً لن يرتضي لا أن يمتلك، ولا

أن يستقرّ، لأن الملكيّة في عرف الأوائل هي العبودية، والركون إلى الأرض ليس ذلاً فقط، ولكنه هزيمة!

ـ أهذا سبب يكفي ليخلفوا عبيدهم في أملاكهم حتى إذا عمّ الصحراء جدب أقبلوا على الواحات ليستجدوا القوت من عبيد الأمس الذين صاروا اليوم في ممتلكاتهم سادة؟

في الأفق تبدّت جِمال تسرح في أحراش البرّ. معبود الأبود ركع غرباً تأهّباً لتأدية مراسم الوداع فطبع الأفق بسربال مصبوغ بنزيفٍ كالدّم.

أجاب المهاجر:

ـ أن يستجدوا القوت أحراراً أولى من أن يُستجدوا القوت وهم عبيد!

ـ الحقّ أني لا أفهم..

ـ حكمتهم، أيّها المبجّل مزّار، تقول أن الأهون للإنسان أن يحيا شحّاذاً يتسوّل القوت من أيدي أمة العبيد من أن يحيا مولى يهب أمّة العبيد القوت.

ـ عجباً! ألا يبدو الاستجداء هنا عبوديّة؟

ـ الاستجداء حتى لو كان استجداءاً من عبد الأمس في يقينهم سيادة؛ لأنه حرية. أمّا السيادة في ظلّ الملكيّة فعبودية، بل هي خطيّة الخطايا التي تحدّث عنها الكتاب الذي سبق كلّ الكتب: «آنهي» الضائع.

ـ ينقلب السادة بالزهد عبيداً لعبيدهم، وينقلب العبيد لأسيادهم سادةً. ألا يبدو لربّ الإحسان الجليل هذا الأمر مفارقةً؟

ـ لن تكون الصفقة مفارقةً إذا كان تنازل السادة عن سلطانهم خياراً لا إجباراً، كما لن يرى ورثتهم في إنقاذهم من الموت جوعاً عندما يسود الجدب، لأن ما يجودون به لهم في أزمان البلايا بمثابة جزية، أو جنساً من المكوس المؤجّلة التي ينصّ عليها العهد، لا حرفاً، ولكن ضمناً!

مع حلول المساء، وزحف العتمة، تمادى السكون. في الغيهب تراءت جِمال ترعى، وكبكبة رجالٍ تسعى فتكلّم «بَسَّا»:

ـ هذه قافلتي، وهؤلاء رجالي، وذاك معسكري الذي اخترته للمقام كلّما حللت في هذه الواحة، آمل أن يبرهن لك على حكمة الأوائل في اتخاذ العراء وسادةً بدل الاختباء وراء الجدران!

تمتم مزّار:

ـ في شخصي يستطيع ربّ الإحسان الجليل أن يرى المصير الشقيّ الذي يمكن أن ينتهي إليه مَن آثر أن يستجير بالجدران!

سكت «بَسَّا» فهيمن السكون. ولكن مزّار ما لبث أن اقترب من رفيق السبيل ليسأل:

ـ ولكن من أنت بحقّ السماوات السّبع؟!

15

ـ ولكن من أنت بحقّ السماوات السبع؟

أدركا موقع المعسكر حيث دبّ الرجال في كل الأركان: بعضهم ذهب إلى يبيس الشجر لجلب الحطب، والبعض الآخر عاند أحمال الأمتعة وسلع القافلة، والبعض الثالث سعى في الخلاء لاسترجاع الجمال من المرتع، وآخرون دسّوا أيديهم في أكياس المؤونة استعداداً لإعداد طعام العشاء. ولكن ربّ القافلة لم يدرك معسكره ليلقي عصا الترحال في رحاب الموقع، بل اجتاز إلى الأمام ليسلّم زمام أمره للبيداء التي تتدفّق نحو الأفق المتوّج بالسلسلة الجبليّة المكابرة الملفوفة، في البُعْد، بغياهب المساء كأنّ الخلاء هو الذي يستدرجه فلا يملك إلا أن يستسلم للإغواء. استبدل نبرة اللسان الأبدي بنبرة اللسان الدنيوي عندما خاطب رفيق السبيل كالمعتذر:

ـ لا أحسب أنّك سترى مانعاً فيما لو تحمّمنا بالعبور قليلاً قبل حلول موعد العشاء تلبية لنداء الناموس الذي يقول أن أنبل

هبة يمكن أن تتوّج بها رأس إنسانٍ خرج من معتقل هو أن تشيّعه في نزهة يرتاد فيها الصحراء!

أطلق مزّار أنيناً عميقاً تعبيراً عن الشجن، ثمّ زفر أنفاساً حارّة قبل أن يتكلّم بصوتٍ ملحون:

ـ ليتني يا رب الإحسان الجليل خرجت من معتقل اليوم، ولكنّي قضيت في المعتقل نصف عمري، لأني سجين في معتقل منذ هجرت الصحراء ظنّاً مني أن أهرع لنجدة «تيرا» المجيدة تلبيةً لنداء الأسلاف. فسِر بنا، يا سيّدي، سِرْ في محراب المعبودة إلى الأبد!

علّق «بسّا»:

ـ ليس متأخّراً أن نتحرّر، كما ليس متأخراً أن نبدأ الحياة من جديد حتّى لو بلغنا من العمر عتيّاً.

سكت برهة. أضاف:

ـ نستطيع الآن أن نتسارر كما يليق بالطُّلقاء أن يفعلوا إذا تلقّفهم حَرَم المعبودة!

استجاب مزّار:

ـ ما يحيّرني، يا سيّدي، هو الحكمة من وراء استبدال اسم «تيرا» العريق باسم «تورا» البدعة!

ـ الحكمة تكمن في المعنى.

ـ أيّهما أنبل: اسم مجبول بالقداسة منذ الأزل كاسم «تيرا»، أم اسم مختوم بالحرف مثل اسم «تورا»؟

سكت «بسَّا» لحظة. أجاب بعد خطوات:

ـ هذه هي الغاية. الحرف هو الغاية، لأن الحرف لغة أهل البهتان ولذلك هو تحريف. أمّا لغة أهل الحكمة فيجب أن تغترب، لأن لا مكان للحقيقة في حضور الأكذوبة. تيرا! تيرا! يا له من اسم نبيل. إنه يعني التميمة في اللغة الأولى، ولكنه استعار دلالة القداسة في لغة الكهنة في المراحل التالية. أمّا «تورا» فهي مجرّد تحريف لـ «تيرا» لا في الحرف فقط، ولكن في المعنى أيضاً. فـ «تورا» التي تعني كتابة، أو كتاب، مرحلة دنيويّة من عمل دنيويّ إذا قيس بـ «تيرا» كتميمة مجسّدة في رمز. الرمز دائماً أعلى شأناً إذا قورن بالرسالة المبثوثة في حرفٍ، أو كتابة. فاللحون الصحراوية كانت في الأصل تمائم للتعبير عن حنين أغراب الأبد إلى المعبود، ولهذا حرَّم الأوائل المساس بأنساق الألحان تحريماً صارماً ليقينهم بأن تبديل سيرة اللحن المقدّس هو بمثابة تضييع للسبيل نحو المعبود. أمّا «تورا» كتدوين فعمل حَرْفي يستطيع الحِرَفيون المهنيون أن يمتهنوه، وأن يمتهنوه يعني أن يهينوه. وأن يهينوه يعني أن يميتوه. ولهذا السبب فعل الزنيم ما فعل وهو يعني ما يفعل.

ـ هل تعني أن شبح الظلمات ذاك تعمّد استبدال اسم «تيرا»

باسم «تورا» من باب تغليب الحرف على الروح، وتغييب لغة المعبود مقابل لغة عابد المعبود؟

حشرجت تحت أقدامهما الحصباء بالوشوشة فخدشت حياء سكون طغى. أجاب «بسًّا».

ـ أجل! استبدال اسم «تيرا» باسم «تورا» محوٌ لئيم لروح القداسة وإحلال بيّن لروح الجهالة محلّه!

ساد السكون المشوّش بوسوسة الحصباء تحت نعليهما. قال مزّار:

ـ ألا يدلّ على هويّة الرجل التي لن تكون إلا هوية سلالة لئيم الأجيال «وان تهيط»؟

ـ مريد الاستقرار في ظلمات الجدران قد يفوق لئيم الأجيال «وان تهيط» لا في اللؤم وحسب، ولكن في الدهاء أيضاً؟

سكت مسافة، ثم أضاف:

ـ بتر الأصابع برهان آخر على سوء النيّة!

اعترض مزّار:

ـ أي سوء نيّة يمكن أن يكون في بتر الأصابع غير الجنون؟

ـ في بتر الأصابع تتخفّى رسالة!

ـ رسالة؟

ـ رسالة مستغلقة، ولكنها رسالة، سيما إذا لاحظنا براعة هذا

الداهية في تسديد المدية الخرافية فلا تبتر بنصلها سوى ثلاثة أصابع هي السّبابة، والأوسط، والبنصر ولا تخطىء الهدف أبداً فتصيب الإبهام، أو الخنصر!

وافقه مزّار:

ـ مدهش حقّاً ألاّ يصيب الوغد الأصبعين الآخرين!

ـ دقّته في استقطاع الأصابع الثلاثة خارقة، لأنه لم يحدث أن أخطأ فحاد عن هذه الأصابع الثلاثة قيد أنملة!

ـ وما تأويل ربّ الإحسان الجليل لهذه الموهبة؟

من الشرق برز رأس بدرٍ وليد أحمر القرص. رمقه «بسًّا» بلهفة، ثم زفر. قال:

ـ بتر السّبابة يعني استئصال اللسان، لأن السبّابة في لغة الأوائل دليل على عضلة اللسان ربّما بسبب موهبتها في الإيماء!

ـ عجباً!

ـ أما الأصبع الأوسط فعضو دالّ، في ناموس كهنة الأجيال، على الذاكرة!

تعجّب قرين السبيل:

ـ على الذاكرة؟

ـ ربما لأن القدماء كانوا يربطون هذا الإصبع بخيط جلد إذا شاءوا أن يتذكّروا أمراً يخشون نسيانه!

ـ عجباً!

ـ أمّا رمز البتر فهو الرمز الأخطر من بين كل الرموز!

توقّف مزّار عن المشي، ولكن مريد العبور لم يستجب لدعوة الرفيق، فمضى إلى الأمام. أدركه مزّار فأكمل:

ـ الخنصر علامة الفحولة، لأن القدماء جرّبوا كيف يفقد الرجال القدرة على إخصاب نسائهم ما أن يفقدوا هذا الإصبع!

صاح مزّار:

ـ عجباً! هل تعني أن الزنيم بلغ من الجنون بحيث يخصي الأمّة؟ ألن يعني هذا قطعٌ لدابر النسل؟

أجاب «بَسَّا»:

ـ ماذا يضير الإخصاء تلك الأمّة التي فقدت اللسان واغتربت عن الذاكرة؟

تمتم مزّار:

ـ هذا لا يُصدّق!

سكت لحظة، ثم توقف فجأة:

ـ هل تراني، يا سيدي الجليل، فقدت اللسان الآن، ومن بعده الذاكرة، ثم القدرة على الإنجاب؟

أجاب «بسّا» بنبرة يقين زعزعت مزّار:

ـ فقدان اللسان ليس في فقدان القدرة على الكلام، ولكن في قول الجهل!

تساءل مزّار بفزع:

- أتراني أقول جهلاً يا سيدي الجليل؟

أجاب «بسّا» بقسوة:

- لم أسمع منك حتى الآن حكمةً أيضاً!

- ولكن.. ولكن أي نفع للمسخ في أن يزيل نسل أمّة من الوجود؟

ارتفع البدر الوليد عن قوس الأفق فأغرق الخلاء بضياءٍ خجول. قال «بسّا»:

- الأيام سوف تكشف نواياه، برغم أن الكلّ يؤكّد أنه ينوي أن يأتي بأمّة أخرى لتحلّ محل أمة «تيرا»!

- من أي أرض سيأتي بأمّة بديلة لأمّة «تيرا» يا ترى؟

- هناك أمّة الأشباح التي ينتمي إليها!

قال «بسًا» العبارة بصوت غامض، ثم أعاد العبارة مرّتين قبل أن يقترب منه الرفيق ليهمس بسؤاله الأبله الذي صار من فرط التكرار مثيلاً لتعويذة:

- ولكن من أنت بحقّ السماوات السبع؟!

16

ـ ولكن من أنت بحقّ السماوات السبع؟

بدأت الأرض تتنكّر لسجيّتها الأولى، فاستولت حجارة الحزيز على هشاشة الحصباء إيذاناً ببلوغ تخوم السلسلة الجبليّة. قال «بسّا»:

ـ إذا لم نفلح الآن في كبح الجموح الذي يتوثّب في قلبينا فسوف نصير غنيمةً للخلاء الليلة!

هتمل مزّار غائباً:

ـ صدقت! آن الأوان لكي نعود على عقبينا.

لم يعودا على العقبين كما اقترح مزّار، ولكنهما استدارا بعد أن قطعا مسافة طويلة كأنّهما استثقلا العودة إلى الوراء. كأن العودة إلى الوراء ضرب من هزيمة بعد أن صارا من النصر قاب قوسين أو أدنى. كأنّ الفرار إلى الأمام نجاة حتى لو قُدِّر لصاحبه أن ينتهي لقمةً سائغةً في بطن التّيه.

تساءل «بسّا»:

ـ هل قلنا الكلمة الأخيرة في سيرة بعبع المسّ؟

ـ بعبع المسّ؟

استفهم مزّار، ثم أضاف:

ـ يا له من لقب جدير بغرابة أطوار الرجل!

سكت مسافة قصيرة قبل أن يجيب على السؤال:

ـ الحقّ أن في نفسي بقية من أسئلة لم تجب عنها السيرة.

تطلع «بسّا» إلى البدر وهو يتحرّر من سيماء الدّم ويستعير إيماء الجوهر، ثم سأل:

ـ لو حقّ لي أن ألقي نظرة على قلب الشقيّ مزّار لقلت أنه يريد أن يروي الظمأ إلى مصير الكنز المفقود!

ـ الكنز المفقود؟

أجاب «بسّا» بعد وهلة صمت:

ـ أعني ذلك الوتد الخبيث الذي يسمّيه الدهماء باسم العائلة!

ـ عجباً! هل يتنبّأ معبود الإحسان الجليل أيضاً؟

تطلّع إلى رفيق السبيل قبل أن يضيف:

ـ أنت حقاً رسول السماوات السّبع!

ولكن قرين السبيل تجاهل العبارة وتطلّع إلى البدر ليقول:

ـ أراهن أنّك ما زلت على يقينك القائل بأن القرينة إنّما انتزعت منك بناموس الغزو!

تعجّب مزّار:

ـ وهل يملك معبود الإحسان الجليل برهاناً واحداً يثبت العكس؟

ـ لا برهان في الدنيا يمكن أن يقارن بشهادة العيان.

ـ شهادة العيان؟

ـ أنت تعلم، وقد لا تعلم، إنّي أوّل من أناخ قافلته على مشارف «تيرا» يوم تنزّلت القارعة، وآخر من هجر مشارف «تيرا» بقافلته لينزل مشارف «إتران».

اختنق مزّار بعبرة. حشرج بلغطٍ مبهم قبل أن يفلح في ترويض العضلة:

ـ هل قُدّر لمعبود الإحسان الجليل أن يقترن بإمرأة يوماً؟

أجاب «بسّا» بلهجة من يتبرّأ من تهمة:

ـ كلاّ! كلاّ!

ـ هذا يعني أنك لم تذق طعم أن تمتلك ذريّةً!

ـ أنا لم أذق طعم أية ملكيّة!

ـ هل تأذن لي فأصدقك القول؟

لم ينتظر من رفيق السبيل إذناً، ولكنه أضاف:

ـ لم أدرك حقيقة التعبير القديم الذي يصف الذريّة بتعبير «الدمامل التي تنهش القلب» إلا أخيراً!

ـ إحساسك بوجع الدمامل سوف يتضاعف إذا علمت حقيقة هذه الدمامل. .

ـ ماذا يريد معبود الإحسان أن يقول؟

دحرج «بسّا» حجراً في طريقه. فحَّ صدره بحشود الأنفاس:

ـ لم يكن بعبع المسّ ليتمكّن من ملكك لولا عون تلك السلفعة التي تشاركك المخدع كل ليلة ظنّاً منك أنها حميمة السرّاء والضرّاء!

ـ لا!

لفظها مزّار كجمرة نار، ثمّ ترنَّحَ حتى كاد يسقط. هرع قرين السبيل لإسناده، ولكن لسانه لم يرحم مصابه:

ـ لن نستأصل الدّاء، في يقين السحرة، ما لم نتجرّع الدواء دفعة واحدة.

تلاحقت أنفاس المصاب لحظات. حَشْرَج:

ـ لو لم تكن رسول السماوات السّبع لما صدّقت، برغم. . برغم الاستهتار في تصرفاتها في الأعوام الأخيرة. ولكن. . ولكن من أي حضيضٍ التقطت بعبع المسّ هذا؟

ـ من خربةٍ، أو دهليز، من قبرٍ أم من قصر؛ ما الفرق؟

تحسّر مزّار:

ـ خسارة! كم كانت عروباً في مسلكها عندما كانت هَديّاً حديثة العهد بالعرس!

ـ كل امرأة عروب وهي بعد هديّ، ولا يزرع في قلبها جرثومة المجون إلاّ الرجل!

استنكر مزّار:

ـ إيّاك أن تسيء بي الظنون في أداء الواجب..

قال «بسّا» بنبرة إدانة:

ـ يسيئك أن تتشدّق بالواجب في وقتٍ أنساك فيه هوس الواجب القيام بواجبك نحو أقرب إنسان إليك!

برقت عينا مزّار بألق الدهشة في ضوء البدر الساطع. تعجّب:

ـ أيعقل أن يكون معبود الإحسان الجليل هو الذي يستهين بعمل جليل كأداء الواجب؟

ـ أداء الواجب بلسم الضمير حقّاً، ولكنه ينقلب مرضاً إذا تحوّل هاجساً!

عاند مزّار:

ـ لن أعترف يوماً بأن العمل بوصايا السلف يمكن أن يخذل خلفاً!

ـ ما يخذل ليس العمل بوصايا السلف، ولكنه الخطأ في قراءة وصايا السلف!

ـ الخطأ في قراءة وصايا السلف؟

ـ بلى! حتى دهاة الكهنة ليسوا معصومين من الخطأ في قراءة الرسائل الموروثة عن السلف!

التقط «بسّا» أنفاسه. أضاف:

ـ لا يجب أن ننسى أن كلّ وصايا العهد القديم مدوّنة باللغة المستغلقة!

وقف مزّار في مواجهته لاهثاً:

ـ لا أظنّ أن معبود الإحسان الجليل يريد أن يدفعني ببليّة البلايا فيقول أنّي أضعت حياتي هباءً يوم قدّمت الروح قرباناً لأداء الواجب!

تكلّم «بسّا» بنغمة عزاء:

ـ لن تضيع حياة مزّار هباءً ما دام في عمر مزّار بقيّة كي يبدأ الحياة من جديد. ألم نتفق بأن ليس متأخراً أبداً أن نبدأ الحياة من جديد؟

سرح مزّار في الفراغ، ولكنه لم يحرّك لمواصلة المسير ساكناً. حشرج:

ـ حدّثني عن السلفعة!

ـ يؤسفني أن أقول أنّك المذنب الذي خلق من تلك المرأة سلفعة!

ـ أنا المذنب؟

زفر «بسّا» أنفاس الإعياء. طارد الكوكب السماوي ببصره:

ـ ألا تعلم، أيها الشقيّ مزّار، أن المرأة تهجر مخدع ملك ملوكٍ بخل عليها بوقته لتذهب فترتمي في أحضان عبد عبيدٍ وهبها وقته؟

همَّ مزّار أن يجيب، ولكن «بسّا» قاطعه:

ـ لا تبرّر خطيئتك بالحديث عن أداء الواجب لأن الواجب هو الأحجية التي لم تفهمها المرأة يوماً ليقينها بأنها لم تُخلق إلا لتكون لها ضرّةً في امتلاك الرجل!

سكت مزّار طويلاً قال أخيراً:

ـ هذا يعني أن على الرجل المغلول بأصفاد الواجب أن يقنع بفراق الأبد مع المرأة!

ـ بلى! لأن الواجب هو الوجه الآخر لمعشوق الرجل الآخر الذي لا تطيقه المرأة ألا وهو: الحرية!

ـ اللعنة على المرأة!

ـ هذا ليس كل شيء.

ـ ماذا أيضاً؟

ـ هناك الثأر!

ـ أي ثأر؟

سكت «بسّا» وهو ما يزال يرنو إلى القمر كأنه يقرأ في الأوسمة التي تتوّج سطح الكوكب نبوءةً:

ـ لا تترك المرأة رجلاً انشغل عنها بالأوهام يذهب في سبيله بسلام، ولكنّها لا بدّ أن تنتقم منه شرّ انتقام!

ـ تنتقم منه؟

تعجّب مزّار ثم استنكر:

ـ وهل هناك انتقام آخر أبشع من انتقام الخيانة، ثم الضلوع في المكيدة؟

ولكن «بسّا» خيّب ظنّه:

ـ بلى! هناك فاكهة الصفقة!

ـ فاكهة الصفقة؟

ـ أعني الذريّة!

ـ ماذا أيضاً عن الذرية؟

ـ المرأة تستكمل سورة انتقامها من رجلٍ كرهته بحرمانه من وريثٍ عول عليه ليكون له سفيراً لدى جلالة الأبدية!

طاف مزّار حول قامة «بسّا» المكابرة تعبيراً عن الحيرة، وربما تنفيساً عن فورة الجنون. ردّد:

ـ جلالة الأبدية..

ـ أعني الخلود.

ـ اللعنة على الخلود!

ابتسم «بسّا»، ولكنه لم يتراجع عن فكّ طلسم الوحي المستعار من سيماء الكوكب:

ـ المرأة تستكمل رسالة الانتقام من الرجل بحرمانه من الخلود الذي عوّل عليه في هوسه بما لا يعوّل عليه!

ـ لا أخالك، أيها المعبود الجليل، تريد أن تقول أن المرأة تعمل على الانتقام من رجلها بقتل سليل الرجل؟

ـ قد تفعل ذلك أيضاً إذا لم يهدها الدهاء إلى حيلة أخرى أنفع لها وأضرّ للرجل!

ـ حيلة أخرى؟

ـ كأن تحقنه بكراهة الأب!

ـ لا أصدّق!

قال «بسّا» بلهجة استخفاف:

ـ كأنّك لم تسمع بأبناءٍ يكتمون أنفاس الآباء!

حدجه مزّار وهو يرتعد. همس بعسر:

ـ ماذا فعلت؟

ـ لم تفعل إلا ما يجب أن تفعل: حقنته في سنوات انهمامك بدمية الواجب، ثم ثنّت عندما أتيحت الفرص بمشيئة الانقلاب الذي أطاح بعرشك فأكملت عملها لتمحوك من ذاكرة خليفتك البائس!

عاد مزّار يحشرج:

ـ ماذا فعلت؟

ـ سلّمته للبعبع ليضع «إيغا يغان» على صدغيه!

ـ لا!

ـ أنت تعلم أن هذا الجنس من أجناس التعذيب لا يحقق النسيان وحسب، ولكنه يذهب بالعقل أيضاً إذا زاد عن الحدّ!

كأنّ سكينة تنزّلت في قلب الأب، لأنه سأل بتسليم:

ـ هل جُنَّ الولد؟

ـ لم يحدّثني أحد عن جنونه، برغم أن الكلّ يتحدّث عن لامبالاته، ولكن البلاهة لم تُجره من بتر الأصابع أيضاً!

سكت مزّار زمناً. سأل بصوت التسليم:

ـ لماذا على البعبع أن يفقده الذاكرة ببتر الأصابع إذا كان بلبال الصدغين قد زرع في رأسه جرثومة النسيان؟

ـ لأن تميمة البعبع تقول: «لا تثق بأحد»!

ـ ماذا يعني ألاّ يثق بأحد؟

ـ ألاّ يثق بأحد يعني أنه لم يثق في ترياق الأسلاف الذي ابتدعوه في «إيغايغان»، ولهذا احتكم إلى استخدام طريقته المستعارة من مجاهل الظلمات!

ـ ولكن. . ولكن كيف هان على أمّ أن تسلّم ولدها إلى نطع الجلاد؟

ـ إذا قرّرت المرأة الانتقام فإنها تضحّي بكل شيء بما في ذلك الولد برغم أن البعض أكد لي أنها لم تسلّم الولد لأعواد «إيغايغان» إلا بعد أن أخذت منه عهداً باستبعاد البتر، ولكن البعبع الذي لا يثق بأحد خذلها، لأنه لا يستطيع أن يتنازل فيستبدل سرّه بسرّ الأسلاف إكباراً لمعشوقة لم يثق بها أيضاً لأن اليوم الذي سيثق فيه بأحد سيكون يوم النهاية!

هيمن سكون. تمتم «بسّا» وهو يهمّ بالانطلاق:

ـ هل في قلبك وسوسة أخرى؟

خطا مزّار إلى جواره غائباً. ولكن الغيبوبة لم تُمِت في قلبه الوشوشة بسؤالٍ صار على شفتيه تميمة:

ـ ولكن من أنت بحقّ السماوات السّبع؟

17

ـ من أنت بحقّ السماوات السبع؟

يتشبّث كوكب الجوهر بمداره، ويتشبّث صاحب الهوية المهينة بسؤاله، في حين ينتصب رسول المجهول قطباً حميماً يجبّهما كليهما، ولكنه يغيبهما بهوية المجهول كليهما أيضاً، كأنه سليل الأبوين الذي يتماهى فيه الوالدان لا ليؤكد حضورهما، ولكن لينفي وجودهما. كما الولد للوالدين برزخ لا يؤكّد إلا لينفي، ولا ينفي إلا ليؤكد كذلك رسالة رسول المجهول الذي يستحضر السماوات السبع بحضوره في الأرض، ويبعث الأرض وصية إلى رحاب السماوات السبع بحضوره في البُعد المجهول، لأن السباحة في مياه الحرية فقط تخلع سيماء القداسة على سلالات التيه لتجعل منهم غرباء وطنٍ مفقود، لأن الحرية، في عرف مريدي الهجرة، هي حجر الحكمة الذي يجعل حتى من الموت ميلاداً.

ـ هل في قلب الغريب وسواس آخر؟

هسهس الرسول فاستفهم الغريب:

ـ الغريب؟

ـ كلّنا غرباء!

ـ ظننت أن هويّة العار التي أحملها ختماً لا يتجزّأ من يدي هي شهادة الاغتراب!

ـ علامة نحملها في البدن لا تصلح برهاناً على هوية إلاّ في نظر البلهاء!

اعترف صاحب الهوية:

ـ الحق أقول لك: لا أتذكّر ختم اللعنة هذا حتى تنتابني القشعريرة ويصيبني الغثيان.

ـ في الإحساس بالخطيئة يكمن السّبب.

ـ الإحساس بالخطيئة؟

ـ كلّنا خطاة، وكلّ بصمٍ يذكّرنا بخطيئتنا.

تعجّب الغريب:

ـ لا أخالك تريد أن تقول أن ختم البعبع القابع في «تيرا»، أيضاً بصمة للتدليل على إثمنا!

ـ تأمل قليلاً: أليست عضلة اللسان التي تدل عليها السبابة علامة خطيئة؟ أليست الذاكرة التي دلّ عليها الإصبع الأوسط برهاناً على خطيئة؟ أليس الإحليل الذي دلّ عليه الخنصر أداة

خطيئة؟ ثم ألا ترى أن هذه الأعضاء مجتمعة هي بمثابة عضو واحد، لأنّها السر الوحيد الذي جُعل وقفاً على الإنسان من دون الكائنات جميعاً؟ استوى كوكب الجوهر على عرشه في الفلك الأعلى بعد أن تحرّر من خضاب الميلاد فشعَّ وسطع ولم يعد في رحلته مجرّد بدرٍ يسكب على كائنات الأسافل نصيباً من فيض، ولكنه انقلب معبوداً أيضاً يفيض على مريديه بنصيبٍ من وحيه فيغترب أهل العبور عن هوياتهم الأرضية ليستعيروا روحاً سماوية.

احتجّ صاحب البصمة:

ـ ألن يعني هذا أن في ختم البعبع تتخبّأ رسالة أيضاً؟

أجاب مريد الرحيل وهو يخطو إلى جوار الرفيق بيسرٍ مريب كأنه يخطو في الفراغ، ويتنقل بجرمه النحيل في غمر المعبود الفضيّ كأنه الخيال:

ـ بالطبع في ختم البعبع تتخبّأ رسالة!

ـ لعلها رسالة شرّ؟

ـ الرسالة إذا كانت رسالة حقيقية فهي رمز. والرمز دائماً طلسمان مركّب، ولو خلا الرمز من هذا التركيب لما صار لغزاً يستهوي الأجيال، ولما صار كنزاً يغوي الأمم على مرّ الأزمان.

ـ ألن يعني هذا أننا لم نقرأ الرسالة إلى النهاية كما يجب أن تقرأ؟

ـ واهم من ظنّ أنه يستطيع أن يقرأ رسالة مبثوثة في رمز قراءة النهاية، لأن شرط الرسالة في أنها بئر بلا قاع!

ـ هذا يعني أنها أحجية، وليست مجرّد رسالة.

ـ أحجية بالطبع، ولكن الثراء هو ما يميّزها عن الأحجية أيضاً. لقد قلت لك أنها بئر بلا قاع!

سكت صاحب الوصمة قليلاً. أضاف:

ـ سألتني منذ قليل عمّا إذا كان في قلبي وسواس آخر، ولم أكن لأخفي على رسول السماوات السّبع أمر السجّان!

ـ السجّان؟

ـ سجّان البعبع عندما أطلق سراحي أمرني أن أسير في طريق الغرب دون أن أفهم لماذا عليّ أن أسلك طريق الغرب دون أي طريق آخر.

سكت مريد العبور عَبَر المسافة بجرم الطيف. قال:

ـ السجّان كان المخلوق الوحيد الذي أراد بك خيراً بوصيته في تلك الديار!

ـ عجباً!

ـ السير في طريق الغرب سير في طريق البعث!

ـ البعث؟

ـ لا نولد حقاً إلا بالبعث، ولا نُبعث حقّاً إلاّ بعبور أرض الغرب.

ـ في أرض الغرب لم أعرف غير صحراء الحمادة التي لا تختلف عن أي ركن آخر في هذه الصحراء.

ـ تخطىء! في الغرب صحراء ليست ككلّ صحراء، لأنها الصحراء المرت الوحيدة التي لا توجد بها آبار، ولا تنبت فيها النّبوت، ولا ترتفع فيها الجبال، ولا شيء يمكن أن يجير فيها من نار المعبود في الأعالي، ولا من الظمأ أو الجوع أو الأفاعي في الأسافل! إنها الوطن الوحيد الذي يصير فيه الغرباء أنبياء إذا لم تخذلهم الإرادة فينقلبوا على أعقابهم قبل أن يعبروا!

هيمن سكون من ذلك الجنس الحافل بالرزّ والركز ورطانات الجنّ.

سأل صاحب الوسم:

ـ هل عبر رسول السماوات السّبع صحراء الحمادة الغربية أيضاً؟

أجاب رسول الهجرة بصوت الحفيف وهو يتنقّل إلى جوار رفيقه بجرم الطيف:

ـ لو لم أعبر صحراء الحمادة الغربية لاستنكرت لقب رسول السماوات السبع الذي خلعته عليّ؟

تمتم ممسوس الدمغة:

ـ يحزنني أن أسيء الظنّ بسجّان البعبع.

ـ لقد شاء بإماتتك أن يحييك من حيث ظننت أنك نجوت باختيار موتٍ حسبته حياة!

تحمّم المريد بفيوض الضياء لحظة. أضاف:

ـ قيل لي في الواحة أن السجّان هو من أقنع البعبع بإطلاق سراحك ونفيك نحو صحراء الغرب.

ـ لا أصدّق أن البعبع يمكن أن يتنازل فيأخذ برأي مخلوقٍ حتّى لو كان سجّاناً في ملكه!

ـ ولهذا السبب ما لبث السجّان الشقيّ أن دفع حياته ثمناً، لأنّ البعبع اكتشف حقيقة الوصية في رأي السجّان ما أن خلا لنفسه ليستشير أشباحه!

توجّع رفيق السبيل بآهة فجيعة قبل أن يعلن:

ـ ها هو سبب آخر لتبكيت الضمير!

ـ أنت في المعمعة لم تكن سوى ضحيّة، ولا ذنب للضحايا في سقوط الأبرياء كلما اشتعلت في الدنيا نيران المعمعة. رسالة الضحية البحث عن سبيل الخلاص.

هتف مزّار بلا إبطاء:

ـ لا خلاص لضحيّة بلا ردّ اعتبار.

توضّحه رفيق السبيل في ضوء البدر قليلاً، ثم تساءل:

ـ ألا يعني ردّ الاعتبار وجود النيّة في ثأر؟

أجاب مزّار بتصميم:

ـ الضحية في كل الأحوال لن تفقد بالثأر إلا طبيعتها كضحيّة!

تفكّر «بسّا» مسافةً. حذّر:

ـ ألا تخشى ما يقال في الوصايا القديمة عن الانتقام؟

عوِّل على عناية الإقدار، إذا تعلق الأمر بالانتقام، لا على نفسك، لأنّك بالتعويل على الأقدار تعوّل على التخلّي، والتخلي كما علَّم الناموس يعني الحريّة. ولكن بالتعويل على أنفسنا ننتقم من أنفسنا، لا من خصومنا!

تمتم مزّار:

ـ هراء! هذه وصيّة قد تصلح درساً لمن امتلك ما يخسر، ولكنها لن تصلح سراجاً لضحيّة!

اعترض «بسّا»:

ـ لا نخسر شيئاً ما لم نخسر أنفسنا. هذا ما يقوله الكتاب الضائع!

تهكّم مزّار:

ـ كيف لم أخسر شيئاً إذا كنت قد خسرت ملكي؟ كيف لم أخسر شيئاً إذا كنت قد خسرت امرأتي؟ كيف لم أخسر شيئاً إذا كنت قد خسرت وريثي أو شهادة خلودي كما تسميها؟ كيف لم

أخسر شيئاً إذا كنت قد خسرت هويّتي؟ بل كيف لم أخسر نفسي إذا كنت قد خسرت ذاكرتي ولساني وخصوبتي بختم جهنّم الذي أحمله وصمة عارٍ في جسدي؟

ابتسم «بسّا» خفيةً. هَسْهَس بنبرة من يحدّث نفسه:

ـ ألم تتحدّث منذ قليل عن تبكيت الضمير؟ إنسان يوسوس في قلبه ضمير حيّ ذاك برهان على أنه الإنسان الذي لم يخسر شيئاً، لأننا نحيا بالضمير، ولكننا نموت بالملكيّة.

ـ أوافقك أن امتلاك حطام الدنيا ليس دليلاً على حياة، ولكن ماذا تقول، يا معبود الإحسان الجليل، عن فقدان الهوية؟ ماذا تقول عن فقدان الذاكرة؟

سكت «بسّا» طويلاً حتى أيقن مزّار أن قرينه تخلّى عن الجدل، ولكن «بسّا» خيّب ظنّه:

ـ لكي أبرهن لك على حقيقة ما تحسبه فقداً يحسن بنا أن نتحدّث عن عبارة «ميدياغز» التي تتردّد صباح مساء على ألسنة الأشياخ كأنها وصيّة الوصايا.

ـ ميدياغز؟!

ـ ماذا يمكن أن تعني هذه اللفظة حقّاً في يقينك؟

ـ لا أعتقد أنها يمكن أن تعني أكثر مما تعنيه. أي أنها تحذير من عقد الآمال على الأيام. إنها الشكّ في أن يمهل الزمان!

ـ هذا ربما ما تعنيه حرفاً، ولكنها تعني في حقيقتها الأولى إنكار صريح للتاريخ!

استنكر مزّار:

ـ إنكار للتاريخ؟

ـ بالطبع! فالإنسان الذي يعتنق إيماناً مسلّماً بعدم جدوى أي عمل مهما كان عظيماً في يقين الخليقة لأن جلاّد اسمه الزمان سيقطع دابره آجلاً حتى لو سمح بحدوثه عاجلاً، هو إنسان لا يعترف بوجوده على قيد الحياة أصلاً، فكيف يعترف لنفسه بوجود تاريخه؟

تفكّر مزّار. برطم:

ـ الحقّ أني لم أفكر بالعبارة على هذا النحو يوماً.

ـ إنسان يرفض وجود الوجود لأنه لا ينتظر من الغد إلا الزوال لا يملك ما يمكن أن يعوّل عليه في أيامه المعدودة سوى العبور الذي لن يعني سوى محاكاة سجيّة الزمان بالسير في ركاب الزمان بدل الرهان على الركون إلى الحضيض للاستجارة بأمان الزور الذي تحققه الملكية في الأرض. وهي حيلة مستوحاة من طبيعة الصحراء كرسولٍ يجاهر بنبوءة المحو بلا انقطاع ليبرهن على عقيدة الباطل التي قد تعني الفناء في حرفها، ولكنها تعد بالحرية في وصيّتها المضمرة. ولهذا السبب سَنَّ حكماء الأجيال ناموس الإنابة..

قاطعه مزّار:

ـ مهلاً! مهلاً! ماذا يعني رسول السماوات السبع بناموس الإنابة؟

زفر «بسّا» زفرة شجن موجعة. أكمل:

ـ من اختار أن يحيا بقوانين الحرية لا بدّ أن ينصبّ في الأرض خليفةً، لأنه لا يحيا في الأرض بنواميس الأرض. ولهذا تجد الأسلاف يقيمون في الواحات عبيدهم لكي ينيبوهم عنهم في ممارسة بهتان الدنيا. ولكن صاحب الواحة بما أنه طيف عابر في صحراء بحدّ ذاتها طيف لا بد أن يختفي ليرثه عبيده في امتلاك أملاكه الأرضيّة. لهذا السبب لا بدّ أن تنقلب ذريّة صاحب الملكيّة الأصلي سلالة تتسوّل القوت من يد عبيد السلف الذين صاروا بالميراث سادة ملكيّة. وكان الأمر يمكن أن يهون لو اقتصر على الملكيّة..

التقط الرجل أنفاسه قبل أن يواصل سرد السيرة:

ـ الأسوأ ليس أن يرث العبيد ثمار السادة، ولكن في أن ترث هذه الملّة تلك الوصايا النفيسة التي أطلقت عليها الأجيال اسم الناموس الضائع «آنهي»، لأن لقب الضياع الذي أُلصق على مرّ الأجيال على إضبارة هذه الوصايا لم يكن ليطلق على «آنهي» لو لم تقع هذه الوصايا في يد الملّة الأرضية المسكونة بحبّ

الملكية لتنتحل هذه الوصايا وتنسبها إلى نفسها لتصنع بها مجداً لم تمتلكه يوماً. هل تعرف، أيها العزيز مزّار، لماذا؟

لم ينتظر جواباً. أضاف:

ـ لأن ليس من شيمة الأرض التي يتشبّث بحلمتها عبد الأرض أن تلد النبوءة، لأن النبوءة ابنة الحرية الشرعيّة ولم تكن يوماً سليلة حضيض. والصحراء هي الممثّل الشرعي الوحيد لهذه الحرية. فهل اكتفت أمّة العبيد الأرضية بهذا الزور؟

سكت. سكت طويلاً، ولكن مزّار دبّ إلى جواره غائباً. أضاف:

ـ كلاّ بالطبع! أمّة الزور لم تكتفِ بانتحال ميراثٍ لم يتناسب مع مسلكها يوماً، ولم تكن متونه تعبيراً عن أخلاقه يوماً لا بالروح وحسب، ولكن حرفاً أيضاً. أمّة الزور أضافت إلى حملتها في إخفاء حقيقتها فصلاً جديداً عندما تولّت كتابة تاريخ من لم يعترف بالتاريخ بالإنابة لتكتمل الجريمة التاريخية المنكرة في تزييف تاريخ أمّة العبور التي لم تعترف لا بوجود التاريخ وحسب، ولكن لم تعترف بوجودها نفسه في التاريخ، لم تعترف بوجودها قيد الوجود، لأن من اتخذ من الحرية ديناً وحده يملك الحقّ في أن ينكر وجوده قيد الوجود أيّها العزيز مزّار. فهل تدري لماذا يتغنّى القوم بالعبارة الأليمة التي لا تخلو من الشّعر برغم الألم: «إيموهاغ أميهاغن»؟

سكت قليلاً. أجاب بعد أن قطع مسافة:

- إنها الترجمة الحقيقية للزهد في فاكهة الزمان الذي تحدّثت عنه الوصية الأولى التي سلف ذكرها، لأن الاعتراف بالهويّة كاسمٍ مغترب ما هو إلا النتيجة الطبيعية للاغتراب في الزمان. إنه القَبول طوعاً بنفي الذاكرة، لأن في تغييب الذاكرة يكمن الإحساس بتلك الأحجية التي يسمّيها القوم حرية في حين يطاردها أهل الملكيّة كما تُطارد طريدة المحال فلا يدركونها أبداً لا لأنّهم استبدلوا اسمها ليصبح سعادةً، ولكن لأنها لا تجتمع مع معشوقتهم الملكية تحت سقفٍ واحد أبداً. فهل تراود الوسوسة الإنسان الذي أعادته البليّة إلى فردوسٍ فرّ من رحابه يوماً بحجّة أداء الواجب، ويريد اليوم أن ينتقم من عبيدٍ استعادوا ملكاً لم يكن يوماً إلاّ غنيمة من نصيب ملّة العبيد؟

انتصب بين الرفيقين صمت. في العراء تسلّط ضياء البدر. في القرب تبدّت أضواء نيران المخيّم. تمتم مزّار:

- لم يبق في قلب هذا الشقيّ سوى سؤال واحد هو: من أنت يا رسول السماوات السّبع بحقّ وطنك السماوات السبع؟

سكت «بسّا». في صدره دمدم صوت خفيّ كهزيم رعدٍ بعيد. قال:

- اعلم، إذاً، أنّي الإنسان الذي لم ينل هويّة رسول

السماوات السبع إلاّ بفضل المخلوق الشقيّ الذي يدبّ إلى جواري الآن!

ـ بفضلي أنا؟

بعد خطوتين اثنتين أجاب «بسّا» على السؤال الذي توّج الجدل بالخاتمة:

ـ أنا الإنسان الذي لم يكن ليصير رسول السماوات السبع لو لم تبعثه أنت من الموت حيّاً في وقتٍ أراد له الأغيار الحياة التي تميت، لأن الإنسان لا يصير، يا خلّ الزمان، رسول سماواتٍ سبع ما لم يمت ليُبعث من الموت حيّاً!

اعترض مزّار سبيله فتوقّف «بسّا». تبادلا نظرة طويلة إلى أن تساءل مزّار:

ـ كيف لي أن أفهم هذه الأحجية؟

تأمّله «بسّا» لوهلة. قال أخيراً:

ـ قد نُميت من أردنا له الحياة بجنس القصاص، وقد نحيي من شئنا له الموت بجنس القصاص أيضاً!

ـ ألن يعني هذا تفسير الأحجية بأحجية أخرى أعسر منالاً؟

حدّق «بسّا» في سيماء مزّار زمناً، ثم تنحّى جانباً ليرنو إلى البدر في سماءٍ مزروعة بالنجوم، تكلّم كأنه يروي سيرة جديدة:

ـ حدث مرّة أن شقيّاً تسلّل إلى مراتع صاحب إحدى

الواحات ليسرق صرمةً من الإبل في غفلةٍ من الرعاة البلهاء، ولكن لم يلبث أن وجد نفسه مقبوضاً عليه ليمثل في ساحة قضاء تلك الواحة التي حكمت عليه بالبراءة لعدم كفاية الأدلّة، ولكن صاحب الشأن طعن في الحكم بعونٍ من شهود الزور فاستبدل القضاء حكم البراءة بحكم الموت خنقاً. مكث السجين زمناً طويلاً في أحد الأقبية انتظاراً لتنفيذ الحكم إلى أن جاء ذلك اليوم الذي وجد فيه الشقيّ نفسه وجهاً لوجه مع جلاّده الرهيب المخوّل بتنفيذ منطوق الحكم. فهل يدري العزيز مزّار ماذا حدث في اللحظة التي أطبق فيها الجلاّد بيديه الفظيعتين على عنق الشقيّ؟ لقد أقبل الرسول الذي حمل نبأ استبدال حكم الموت بحكم المنفى، لأن وسواساً أوحى لصاحب الشأن أن يستبدل الحكم كما أُشيع فيما بعد.

تجاوروا في السبيل مرة أخرى. تساءل «بسّا»:

ـ الإنسان الوحيد الذي يستطيع أن يكشف سرّ ذلك الوسواس الذي صار سبب بعث إنسانٍ إلى الحياة بعد موتٍ عاشه منذ صدور الحكم بالموت هو أنت!

ـ أنا؟

سكت «بسّا» مسافة. هتمل بعد قليل:

ـ أنت كنت صاحب الشأن الذي حكم ثم استبدل القصاص، وأنا كنت المحكوم عليه الذي بعثه قصاص الموت إلى الحياة!

ساد صمت. همس مزّار:

ـ كيف لي أن أذكر يا معبود الإحسان الجليل إذا كنتُ بالختم اللعين فقيد الذاكرة؟

18

تأهَّب «بسّا» للانطلاق بقافلته ما أن انتهى من دفع الدَّين: أسقط الديون المستحقّة عن «ميدي»، ودفع المال الموعود لتغطية الإتاوة على الماء التي اتخذها البعبع ذريعة لابتزاز صديقه القديم، وحرّر بهذا الإحسان عزيز القوم الذي ذلّ. عزيز القوم أبدى نيّته في الالتحاق بواحة «إمران» برفقة القافلة طلباً للأمان، ولكنّ رسولاً أقبل ليحدّث زعيم المعسكر عن الفتنة التي اشتعلت بين البعبع و«ميدي» بسبب قيام الداهية بالاستيلاء على الأرض الرملية الغنيّة بغابات النخيل البعلي الواقعة على الحدود مع واحة الجوار ناحية الغرب مدّعياً ملكيّتها العائدة لـ «تيرا» بحجّة ارتواء نخيل الأرض من مياه بحيرته الجوفية، فما كان من الواحات الأخرى إلا أن أعلنت «تيرا» واحةً معادية تضامناً مع «إتران».

استمع «بسّا» للرسول مليّاً، ثم التفت إلى مزّار مستفهماً:

ـ يهمّني أن أعلم عمّا إذا كان ضيفي ما زال يفكّر بالذهاب إلى صاحب «إمران» مستجيراً!

تطلّع إليه مزّار بفضول قبل أن يتساءل:

- وما الذي يدعوني للتراجع عن أمنيتي؟

- ألم تسمع نبأ هذا الرسول؟

- ليس في نبأ الرسول ما يمكن أن يمنعني من نَيْل بُغيتي.

تأمّله «بسّا» طويلاً. قال باسماً:

- بدأت أشكّ في إصابتك بعطب الذاكرة حقّاً!

ابتسم مزّار أيضاً:

- إذا كان البعبع قد دسّ في بتر الأصابع نيّة سوء فلا أعتقد أن مسخاً فظيعاً مثله يمكن أن يخطىء الهدف!

- ألم تفهم معنى أن يعلن حلف الواحات «تيرا» واحةً معادية؟

رمقه مزّار مقطّب الجبين فأضاف:

- هذا يعني أنّك موعود في «إمران» بالمعتقل بدل الفوز بالأمان!

- ماذا؟

سكت «بسّا». رنا إلى الخلاء المستلقي جنوباً وهو يترامى سمحاً حتى تعترض سماحته السيوف الرملية في الأفق. تمتم:

- هل نسي ضيفي الكريم اسمه الجديد؟

استنكر مزّار:

- اسمي الجديد؟

ـ الأبتر!

ـ وما الذي يمكن أن يعنيه لقب سخيف خُلع عليّ جوراً؟

ـ إنه سيعني في «إمران» غداً ما عناه في «إتران» بالأمس!

«بسّا» لم يستسلم.

ـ لقب الأبتر لم يعد لقبك وحدك، ولكنه هويّة أهل «تيرا» جميعاً!

تعجّب مزّار:

ـ ولكني طريد واحة «تيرا» ولست ابن واحة «تيرا».

ـ هذا ما تقوله أنت!

حدّق مزّار في عين مضيفه. سأل بوجع:

ـ ألن يقوله معي معبود الإحسان الجليل؟

ـ معبود الإحسان سوف يقوله معك، ولكنه يحتاج إلى دفع الأموال الخرافية لصاحب الواحة كي يجبره على التصديق كما فعل مع صاحب «إتران» بالأمس القريب!

ساد السكون. في عمق السكون وشوشت أصوات مجهولة كأنّها معزوفة خفية يروق للجنّ أن يردّدوها دوماً في مغاور «تادرارت» لتزجية الوقت.

قال مزّار بحزن:

ـ صدقت! نسيت أن وصمة العار التي أحملها في هذا البدن

جعلت منّي جملاً مصاباً بالجرب. والمكان الوحيد المناسب للجمل الأجرب هو المكان البعيد الذي يستطيع أن يموت فيه وحيداً.

ولكن «بسّا» هوَّنَ عليه:

ـ ليس عليك أن تذهب لتموت في البُعد وحيداً إذا كنت تستطيع أن تستبدل استجداء الأمان ممن هم أحوج منك لاستجداء الأمان بالفعل الوحيد الجدير بالإكبار!

تطلّع إليه مزّار، ولكن «بسّا» لم يمهله:

ـ الانتقام!

تبادلا نظرة خاطفة، ثمّ لاذا بالصمت إلى أن عَبَّر مزّار عن شكّ:

ـ ظننتك ألدّ أعداء الانتقام!

ـ لست أنا من يعادي الانتقام، ولكن الحكمة هي التي تعادي الانتقام!

عاد مزّار يتطلّع إلى مضيفه الغائب في مجاهل العراء. أشاح ببصره جانباً قبل أن يبدي شكّاً جديداً:

ـ ظننت أن الرسول، أي رسول، لا يصير رسولاً قبل أن يرتوي من ينبوع الحكمة، فكيف برسول السماوات السبع؟

ـ هل صار النبيل مزّار أبتراً بالقلب لمجرّد لقب خلعوه عليه بسبب فعل عدوانٍ أصاب اليد؟

ـ بالقلب؟

«بسّا» تجاهل السؤال:

ـ لم يبرهن اللقب يوماً على سجيّة. وإذا أصاب هذا البدن نصيباً من حكمة مرّةً فلن تكون الشهادة الدّالّة على هذه الحكمة شيئاً سوى الألم!

ردّد مزّار ساهماً:

ـ الألم.. الألم..

هرع لمواساته الضيف:

ـ إذا نلتُ حكمةً فقد نلتها بألم الأمس، ولكنّك، بألم اليوم أنت أعظم منّي حكمةً!

19

في رحلة القافلة إلى الأمام طاف ربّ القافلة بضيفه الأركان. بدأ الطواف الطويل بواحة «إمران»، ثم اتّجه صوب الشرق حتى بلغ واحة «واو». من هناك انطلق ليعبر سباسب بحر الرمال العظيم حتى نزل واحة «سيوة»، ثمّ انحرف شمالاً ليحادي تخوم اليمّ القديم المسكون بالتنانين والسعالي والغيلان كما تؤكّد روايات القبائل لتنبّه المسافرين ليكونوا منه في حذر. في تلك الأنحاء وجدوا البطل إيدكران يطوف نجوع الرّحّل ليجمع كباكب الرجال ليغذّي بهم حملته في محاربة دخلاء ما وراء اليمّ بعدما تدفّق هؤلاء من مستوطناتهم على الشطوط ليغزوا صحراء الدواخل.

تنحّى مريد العبور في رحلته جنوباً ليجتنب البرزخ المستهدف من الطرفين المتحاربين، ولكنه عاد فتوغّل في الطريق الأعلى المؤدّي إلى الشمال الغربي لينزل «ليبتا». من هناك استسلم لسبيل الغرب الذي يعبر سلسلة الواحات الممتدّة

على طول المترفعات الجبلية المسكونة بملل ألقت عصا الترحال إلى الاستقرار في أرضٍ قاسية مَرْتٍ من النّبوت.

هناك، بعد اجتياز البيداء المزروعة بالروابي العارية والمرتفعات المفروشة بحجارة الحزيز، تنتصب مفازة مسطّحة، مغطّاة بيابسةٍ طينيّة حمراء اللون، منثورةٍ بفرشةٍ منظومةٍ من حبيبات الحصباء، تستلقي في استواءٍ موجع حتى تغترب في مدى يغيب في أفقٍ مغمورٍ بالسراب لا يلبث أن يتماهى بسماءٍ عميقة الزرقة بفضل عريّها الأبدي من الغيم.

إنها بوّابة الوطن المسمّى في معجم الأجيال الأولى بـ «تينغرت» والمترجم إلى رطانات الأمم في اسم «الحمادة الغربية»؛ تلك الصحراء التي تغوي في مستهلّها بالفاكهة الوحيدة التي تستطيع أن تُنسى العابر وطنه فلا يملك من أمر نفسه إلا أن يمضي إلى الأمام والمسماة كمأً. يمضي إلى ذلك المكان الذي حقّ لكهنة الأجيال أن يطلقوا عليه اسم «اللامكان»، لأنه المكان الوحيد الذي إذا حدث ودخله الإنسان استمرأ المقام في رحابه، فلا يعود إلى صحراء الناس أبداً؛ أمّا إذا حدث وعاد فلا يعود من هناك إلا رسولاً محملاً بنبوءة.

ولكن رسول السماوات السبع انحرف نحو الحيد الشمالي ما أن هيمنت سيماء «تينغرت» لتستولي على الأرض، تماماً كما فعل عند عبوره صحراء ايدكران الموبوءة برائحة الدم والحرب،

لأنه أدرى الناس بطبيعة التجارة التي يحملها بقافلته. هذه التجارة التي يروق له دوماً أن يصفها فيقول أنها مارد حقّاً، ولكنه مارد هشّ. مارد هش، لأنه جبان. ماردٌ جبان لأنه المارد الوحيد الذي لا يطيق الحروب، ويرتجف فزعاً إذا اشتمّ رائحة الدّم، إلى حدّ أنه ينهار أرضاً ليعاند أنفاس النزع الأخير إذا لم تنجده الحيلة لينجو بالفرار إلى أبعد أرض. وإذا كانت الحرب عدوّ مارد التجارة اللّدود فإن الحرية وسواس هذا المارد المميت، لأنه لا يجد في حضورها ما يفعله بنفسه إلا أن يضمر، ويهزل، ويتضاءل، إلى أن يتبخّر ويختفي.

يتساءل رفيق السبيل عن السرّ فيجيب مريد الطريق قائلاً أن السبب يكمن في حقيقة هذه الأعجوبة (الحرية) التي ترفض وجود السوق في ديارها رفضاً قاطعاً. والسوق ليس ماء حياة فقط في ناموس مارد التجارة، ولكنّه العشّ الذي يحضن فيه بيوضه. فإذا أعجزه وجود العشّ الذي يضمن احتضان البيوض هلك، لأن العجز عن التكاثر هو السمّ الزعاف في عرف التجارة.

سلك «بسّا» طرق الشمال المؤدية إلى واحة «قدموس» في أقصى الغرب مجتنباً عبور صحراء الحمادة الموبوءة بالخلاص، لأن في خلاص الإنسان يكمن هلاك البضاعة. لأن في حريّة الإنسان يكمن بور التجارة. لأن في حياة الإنسان يكمن موت التجارة!

20

في المرحلة الأولى من الرحلة الطويلة استجدى الشقيّ مزّار عون صاحب الإحسان «بسّا» في وضع نيّته في الثأر موضع التنفيذ فتحدّث «بسّا» عن سليقة الثأر:

- على مزّار النبيل أن يعلم أن تحذيري له من الأخذ بالثأر لم يكن تلبيةً لنداء الحكمة، بقدر ما كان تحذيراً من العودة إلى الوراء!

كانا يمتطيان ظهرا جملين يتجاوران حيناً، ويتباعدان حيناً آخر. يتأخّران عن طابور القافلة مرّةً، ويسرعان ليلتحقا بالقافلة مرّة أخرى. ينشغلان بجدلهما فيغفلا عن دابّتيهما فتنتهز الدّابتان غفلتهما لتريحا وتسترخيا، حتى إذا انتبه الراكبان لتخلّف المطيتين عن الركب لكزاهما لحثّهما على اللحاق بالقافلة. في ذلك اليوم تخلّفا أيضاً عن الركب لأن شجون الحديث عن الانتقام استغفلهما.

استفهم مزّار:

ـ ماذا تعني العودة إلى الوراء هنا؟

ـ إعلم إذاً أن الحكمة لا تحذّر من شيء كما تحذّر من العودة إلى الوراء، لأن العودة من منتصف الطريق دائماً هزيمة حتّى لو كانت غاية السفر خروجاً لاستجلاب الحطب!

انحرف جمل «بسّا» جانباً سعياً وراء عشبة مغرية نبتت بجوار الطريق، ولكن فارس المطيّة أعاد الدّابّة إلى السبيل بشدّة زمام قبل أن يحتجّ مزّار:

ـ ولكنّي لم أختر الخروج إلى الطريق طوعاً، لا من بيتي ولا من واحتي، حتى تصدق بشأني الوصيّة.

ـ لم تختر خروجك حقّاً، ولكنك بالنتيجة خرجت، وما يعني الوصايا ليس السبب، ولكن النتيجة.

ـ ألا يكفي أن نُظلم بالدنيا حتى نظلم بالحكمة أيضاً؟

ـ ظلم الحكمة أقسى حقّاً، ولكن لا يجب أن ننسى أن الدنيا تظلمنا لتهلكنا، أما الحكمة فتظلمنا لتنقذنا!

ـ أي إنقاذ يمكن أن تأتي به حكمة تدعوني إلى عدم الالتفات إلى بيتي أو إلى الفرار من وطني وأهلي؟

جنحت مطيّة «بسّا» من جديد، ولكنه عاند ليعيدها إلى الصراط قبل أن يجيب:

ـ لأن خلاص الحكمة دائماً أقسى، ولكنه الخلاص الوحيد الذي يمكن أن يُعوّل عليه، لأن لسان حالها يقول:

«أنت تملك الحرية في أن تعود إلى مكانٍ هجرته، ولكنّك لن تنعم فيه بالهناء لأنه لو حوى الهناء لما هجرته. أنت تملك الحرية في أن تعود إلى مكانٍ ساء فيه الحال، ولكنّك بالعودة لن تجد فيه الأمان وإلاّ لما هجرته؛ ذلك لأن الأمكنة كسكّان الأمكنة تتدهور، وتتضعضع، وتهرم، وتلفظ أنفاس النزع الأخير قبل أن تموت لأنها مثل الأنام رعيّة سلطان لا يرحم هو الزمان!».

سكت «بسّا» وهلة. أضاف:

- أيسر أن تبتني بيتاً جديداً في مكانٍ بعيد من أن تستميت في ترميم البيت القديم في المكان القديم!

تساءل مزّار:

- الحقّ أني لا أفهم..

- خلاصة العبارة في السؤال: هل الأفضل أن ننال، أم الأفضل أن نتحرّر؟

- لا أطمع أن أصير بالحرية رسولاً مثل معبود الإحسان الجليل، كما لا أطمح في أن أنال. كل ما أريده في دنياي هو أن أمحو بصمة العار عن عرضي، وأستردّ اسمي الضائع من برثن البعبع!

- هذا يستدعي أن تغيّر ما بنفسك وتتحلّى بروح أهل البهتان!

استنكر مزّار:

ـ أهل البهتان؟

ـ أعني أهل الدنيا الذين إذا قرّروا أن يثأروا فإنّهم يتلبّسون الثأر ليصير في يقينهم ديناً!

تساءل مزّار بنغمة شكّ:

ـ هل هذا شرط؟

ـ لا يكفي أن يصير الثأر ديناً، ولكن لا بد أن ينقلب هاجس النهار وكابوس الليل لأن إرادة الانتقام ورم خبيث لا بد أن يفترس صاحبه إذا لم يفترس العدوّ!

سكت مزّار طويلاً. تابع فلول القافلة التي ابتعدت فتلقّفها الأفق لتصير مضغةً في فم السراب. قال:

ـ بِمَ توصي لكي لا أمسي يوماً فريسة في فم الورم الخبيث؟

أجاب «بسّا» وهو يعاند بعيره البسوس:

ـ إذا صمّمت فافعل، وإذا فعلت فأحسن! هذه هي الوصيّة!

ـ أخشى أنني لن أفعل بلا عون، ولن أحسن بلا سند.

ـ في الانتقام لا يجب أن نعوّل على أحد!

ـ أردت أن أقول أن المال يستطيع أن يشتري النصر إذا كان يستطيع أن يشتري الذّمم!

ـ قد يفلح المال في شراء ذمم بعض الرجال، ولكن المال لا يستطيع أن يشتري يقين الرجال!

سكت مزّار طويلاً. طارد أشباح القافلة وهي تغيب في بطن السراب الشره. قال:

ـ في مراعي الغرب لن أعدم وجود أنصارٍ أحسنت لهم يوماً.

ولكن «بسّا» خيّب ظنّه في الأنصار أيضاً:

ـ إيّاك أن تعوّل على رجالٍ أحسنت إليهم!

تهكّم مزّار:

ـ لا أعتقد أني أستطيع أن أعوّل على رجالٍ أسأتُ إليهم أيضاً!

«بسّا» خيّب ظنّه هنا أيضاً:

ـ تخطىء! تستطيع أن تعوّل على رجالٍ أسأتَ إليهم، ولكنّك لا تستطيع أن تُعوِّل على رجالٍ أحسنت إليهم. ولولا صدق هذه الوصيّة لما وجدتني إلى جوارك الآن!

في مقلة مزّار نطقت الكآبة. تلقّى «بسّا» الرسالة فاستغرقته قراءتها. كانت مقلتاه تومضان بالبلل في ضوء الكوكب الطاغي عندما هوَّنَ على صاحب البلاء بلهجة الغموض:

ـ اليأس، أحياناً، رسول خلاص.

فاجأه مزّار:

ـ ما طعم الحياة بلا انتقام؟

ـ أوافقك بأن الدنيا رحلة انتقام حقاً، ولكن علينا أن نعترف بأن الانتقام عمل محفوف بالخطر أيضاً.

غيَّبَ الأفق المسربل بذيول السراب القافلة عن الأنظار. حثَّ «بسّا» بعيره على الهرجلة دعكاً لجوجاً من باطن الرِجْل على الرقبة ففزّت المطيّة.

قال مزّار:

ـ ما الذي يمكن أن يعنيه الخطر لإنسانٍ ليس لديه ما يفقد سوى عاره؟

أعاد «بسّا» سيطرته على المطيّة. اعترض:

ـ ليس على الإنسان أن يظنّ أنه لا يملك ما يفقد ما لم يفقد نفسه!

ـ وهل تبقّى منّي شيء يمكن أن يدلّ على أنّي لم أفقد نفسي؟

ـ في بدنك تتردّد أنفاس!

ـ ما جدوى أن تتردّد الأنفاس في جوفٍ بلا ذاكرة، بلا هويّة، بلا وطن؟

ـ ليس على الإنسان أن يركن لليأس ما ظلّت تتردّد في صدره الأنفاس!

ـ هذا ما تقوله أنت!

شدّ مريد السبيل اللجام ليقمع في الدابّة الشطط مصمّماً أن يستبدل البعير في أوّل موقع تحطّ فيه القافلة الرحال. كان قد تنازل للضيف عن جمله المطيع تعبيراً عن إكباره وأداءاً لواجب الضيافة، ولكنه استشعر ضيقاً غامضاً طوال الرحلة لا لأنّ الجمل الذي اختاره خذله، ولكن لسببٍ آخر. وكان عليه أن يستنطق الذاكرة طويلاً كي يستعيد الوصية القائلة بأن المطيّة غير قابلة للإعارة مثلها مثل المرأة.

كتم غضبة قبل أن يقول:

ـ من حقّي أن أقول لأنّي باليأس شهدتُ ميلادي الثاني، لا بالأمل!

ـ ألم يكن هوس الانتقام هو علّة ميلادك الثاني؟

ـ أعترف لك بأن لجنون الانتقام الفضل لا في خلاصي وحده، ولكن في تمكّني من تخليص الكثيرين أمثالك!

استبشر مزّار:

ـ يسعدني أن أسمع منك اعترافاً كهذا ليقيني بأنّك لن تبخل بالعون اليوم على من بعثته من موت بصنيع الأمس!

سكت «بسّا» مسافةً. استسلم لأفقٍ يشتعل بهجير الظهيرة ويعوم في يمّ السراب. في شفّ السراب استعادت القافلة حضورها في الأفق بأجرامٍ خياليّةٍ تتمدّد إلى أعلى كأشتات الظلال، ثمّ تعود لتلتئم في أجسادٍ نحيلةٍ، بالغة الهزال،

راقصةٍ، مضحكةٍ في أدائها، شبيهةٍ بتلك المخلوقات المتنكّرة بالأقنعة التي نَحَتَها الأوائل على جدران الكهوف في صحاري «تاسيلي»، أو «تادرارت» أو «مساك سَطَفَتْ».

انتزع «بسّا» بصره من الرؤى ليقترب ببعيره من بعير رفيق رحلته. قال بسيماءٍ تفضح بهجة مريبة:

- فلنعقد، إذاً، عهداً لا أريد أن أسمّيه صفقةً لعلمي بنفور الناس من منطق أهل التجارة هذا: لن أبخل عليك بالعون منذ اليوم شريطة أن تنتظر الأسوأ، لا الأفضل!

استفهم مزّار:

- وهل هناك أسوأ ممّا وجدتني فيه؟

أجاب «بسّا»:

- يوجد الأسوأ دائماً حتى من الأسوأ!

استفهم مزّار:

- التهلكة؟

- هناك تهلكة أفضل من تهلكة، أو فلنقل، هناك تهلكة أسوأ من تهلكة!

- ماذا تريد أن تقول؟

- أردت أن أقول أن تهلكة تحقّق الغلبة بطولة، ولكن التهلكة التي يخيب فيها المسعى هي تهلكة مرّتين لا مرّة واحدة!

تفكّر مزّار. سرح في امتداد الخلاء. مسح بطرف لثامه عرقاً سخيّاً غزا وجنتيه الحاسرتين. قال بوضوحٍ سمع الرفيق في نبرته رنّة تصميم:

ـ لن أخسر حتّى لو خاب المسعى!

21

الطريق من «قدموس» يقود إلى بلاد «آهجّار». من هناك يفرّ غرباً نحو «سِجِلْماسَت». من «سجلماست» يعبر إلى «تادمّكت» لينحرف جنوباً نحو بلاد التّبر، أو ما أطلق عليه الأوائل اسم «ايمَلْ». من هذه التخوم الجنوبية النائية يصعد درب القوافل من جديد ليرتدّ نحو الشمال عابراً أوطان «آير» حتى ينزل بلاد «آزجر» من جديد.

كان ربّ القافلة يعسكر برجاله خارج الأسوار في كلّ مرّة يدرك فيها واحة جديدة ليلج الحصون برفقة السّلع المزمع بيعها، أو البضائع القابلة للمقايضة، مستعيناً بأقلّ عدد من الأتباع، ثم يعود ليبيت الليل في العراء. في الصباح يستبدل البعائر القابلة للاستبدال ببعائر أقدر على مواصلة السبيل الطويل، ليأمر بشدّ الرحال والانطلاق من جديد كأنه مسكون بجنّ، أو مطارد بشبح، فيفرّ من المكان فرار من لا ينوي أن يطمئن إلى المقام إلى الأبد.

يستقرّ على رحله ليجادل رفيق الأسفار حيناً، أو يلوذ بالصمت مسلّماً زمام الأمر لامتداد الخلاء ليطوف به أبعاد الدنيا الأربعة، كما طاف به يوماً أسافل الدنيا السبعة، ليعود من هناك بالنبوءة الخفيّة التي أهّلته لنيل لقب رسول السماوات السبع.

قرين الرحلة لاحظ أيضاً تشبّث رسول الخلاص بتلابيب الصمت في الآونة الأخيرة إكباراً لصمته. ولكن الصمت الذي كان لمريد السبيل لغةً دوماً لم يكن ليكون بالنسبة للقرين ترفاً يمكن الاستغناء عنه لا لأنّه نَسِيَ لذّة التأمّل في ملكوت الخلوة بسبب انقطاع الصلة الطويل بالصحراء، ولكن لأن اللسان إذا فقد الذاكرة انقلب مجرّد عضلة تتلوّى بين الفكّين لا لتقول قولاً، بل لتردّد لغواً خاوياً من المعنى ربّما لتبرهن لوليّ أمرٍ لم يعد وليّ أمرها أن مجرّد حضورها في الغار المحصّن بالأسنان هو دليل على بقائه على قيد الحياة. لهذا السبب لم يحتمل مزّار الصمت طويلاً فتنازل عن استكبار الزّون مرّة ليفاتح رسول خلاصه:

ـ يحزنني أن يثقل قلب رسول خلاصي أمر فيحجبه عنّي!

ولكن «بسّا» لم يجب إلاّ بعد صمت طويل:

ـ بالصمت نحن نتكلّم، بالكلام نحن نصمت!

ـ هذه وصيّة تليق بمن احترف الأسفار حقّاً.

سارا في ذلك اليوم راجلين يقودان بعيريهما في سببٍ ممهورٍ بشعاع المعبود البكر الذي أغرق المفازة القاسية بفيضه

الذهبيّ للتوّ. خلفهما انطلقت القافلة في طابورٍ متعرّج كبدن أفعوانٍ من أفعوانات أدغال ما وراء نهر «كَوْكَوْ».

قال «بسّا»:

ـ ما أطلقتُ مرّة العنان لثعبان الفم هذا إلاّ وشعرتُ أني أقترف إثماً يجب التكفير عنه بقربان!

سكتا مسافة. تحمّما في مسيرهما بشعاع المعبود الذهبي البكر إلى أن أضاف «بسّا»:

ـ لم أتكلّم مرّة إلا وشعرت بالألم في لساني ينتقل إلى قلبي!

ـ يحدث هذا لمن استمرأ الصمت طويلاً، وبرغم هذا فإن الإنسان لسان كما يقول الناموس.

ـ ولكنّنا باللسان نحن خطاة أيضاً.

ـ أن نكون خطاة بحضور اللسان أهون من أن نكون بهائم بغياب اللسان!

أفلتت من «بسّا» ضحكة. شدّ لثامه حول وجنتيه قبل أن يحتجّ:

ـ ولكن لا يجب أن ننكر أن إطلاق العنان لهذه العضلة السامّة عمل يحجب الصواب دوماً، وربّما الحقيقة أيضاً، برغم أنه لا يخلو من متعة حقّاً!

استبشر مزّار:

ـ الاعتراف الأخير يكفيني حُجّة!

سكت «بسّا» قليلاً. قال باسماً:

ـ برغم أني أعرف أني سأفقد باستخدام اللسان حريّتي إلا أني سأتكلّم الآن ليقيني بوجود ما يستحقّ أن نستخدم في حقّه اللسان!

التفت نحوه مزّار مستفهماً فأضاف:

ـ رُسُل البعبع سبقونا إلى كل الواحات التي مررنا بديارها!

تعجّب مزّار:

ـ رسل البعبع؟

تبسّم «بسّا»:

ـ أعني جواسيس البعبع!

ـ وماذا ينوي البعبع أن يفعل بجواسيسه في هذه الأركان؟

ـ ألم نتفق بأنه ينوي الاستيلاء على الصحراء؟

هتف مزّار:

ـ الويل لمن سوّلت له نفسه أن يستولي على الصحراء!

ساد صمت. ارتفع المعبود عن الأفق أشباراً فتبدّى امتداد المدى موجعاً، أبديّاً، داعياً إلى اليأس.

قال «بسّا»:

ـ ولكن ختم اللعنة المبثوث في أيديهم فضحهم فزُجّ بهم في السجون!

ـ عبّر مزّار عن دهشته مرّة أخرى:

ـ يدهشني أن يخون الدّهاء البعبع فيبعث إلى الأركان بجواسيس مطبوعين بأختام الهويّة المنكرة!

ـ البعبع لم يحسب رجاله جواسيس، ولكنه بعث بهم إلى الأركان رسلاً للدعوة إلى الصراط المستقيم!

استنكر مزّار:

ـ أي صراط يمكن أن يستقيم بأناسٍ محكومين بفقدان الذاكرة واللسان والإحليل؟

ـ البعبع يظنّ أن الختم لن يضرّ إذا تسلّح المريد باليقين!

عاد مزّار يستنكر بعناد طفولي:

ـ أيّ يقين يمكن أن يكون سلاحاً في كفّ إنسانٍ عنّين، مطبوع بالنسيان، وفوق ذلك أبكم؟

«بسّا» خيّب ظنّه كأنه باستفزازه قرّر فجأة أن ينصّب نفسه لسان دفاع عن عمل البعبع:

ـ البعبع يرى أن الخلاص باطل أباطيل إن لم تتغسّل الصحراء بمياه المحو فيستأصل اللسان القديم ليحلّ محلّه اللسان الجديد، وتُجتثّ الذاكرة المهيمنة لتُستبدل بالذاكرة

البكر، وتستقطع عضلة الفخذين أيضاً لتنمية غرمولٍ جديد أقدر على إخصاب النساء بأجيال الإنسان الجديد!

جعجع مزّار بإنكارٍ مكتوم، ثمّ همهم بنئيمٍ مبهمٍ كترنيمةٍ لتميمةٍ مجهولة قبل أن يدمدم:

ـ أصدقك القول يا رسول الإحسان المبجّل: لم أثق في دنياي يوماً بمخلوقٍ يروّج لعبادة الغَدْ كأنّ الدنيا لم تكن بالأمس واليوم والغد أياماً ثلاثة. كأنّ الغد المعبود هذا إله معزول الصلة بركنيه السالفين لمجرّد أنهما سلفا. هؤلاء الذين يحاولون أن يبتنوا مجد الدنيا بأثفية واحدة بدل الأثافي الثلاث يذكّرونني بمن باع بيت الدنيا وكل ما امتلك مقابل بيت الحنين المشيّد في الحلم.

التقط أنفاسه. أضاف بحماس:

ـ الغد باطل أباطيل يروق لأمثال البعبع أن يتخذوه مطيّة لتحقيق جنونهم بتضليل البلهاء!

حاجج «بسّا» بصوت كاللاّمبالاة:

ـ بالنسبة للممسوسين بالحلم لا وجود لأثفية غير أثفية الغد. أما أَمْسُك أو يومك فهما باطل الأباطيل، لا الغد!

تمتم مزّار:

ـ في دمي تجري جرثومة الأسلاف. لهذا السبب ربما لم

أعترف يوماً بأثفية في الثالوث كما اعترفت بحضور الماضي في دنياي!

فاجأه «بسّا»:

ـ أنت لا تدري أن هوَسَك بالأسلاف هذا، وعبادتك لما تسمّيه أداء الواجب، هما الحجّة التي استخدمها البعبع في إقناع الخلق بصدق نواياه يوم أطاح بعرشك!

تزلزل مزّار، ولكنه استبسل في إخفاء انفعاله بهرجلة في الخُطَى. هتمل أخيراً:

ـ حقّاً؟ أيُعقل أن ينطلي هذا السفساف البليد على عقلاء «تيرا»؟

ـ عندما نتحدّث عن ضلال الناس نحن ننسى دائماً نقطة ضعف كلّ الناس: الظمأ الجنوني إلى التغيير!

ـ يهفو الناس إلى التغيير حتى لو جلب التغيير على رؤوسهم البلايا؟

تفكّر «بسّا». أجاب:

ـ حتى لو جلب على رؤوسهم البلايا. هل تعرف لماذا؟

زفر بصوت مسموع كأنه ينفث تعب الأعوام. أضاف:

ـ لأن من يعجز عن تغيير ما بنفسه وحده ينتظر أن يأتيه التغيير من الدنيا. ينتظر هذا التغيير بأي ثمن. ينتظر أن يتنزّل

هذا التغيير حتى في زلزال يخسف الأرض بالدنيا وبأهل الدنيا وبه أيضاً بالطبع!

- عجباً! أينتظر التغيير حتى لو كان شرّاً؟

- ينتظره حتى لو كان شرّاً. هل تدري لماذا؟ لأنه مخلوق شقيّ أيها النبيل مزّار. مخلوق شقيّ لأن أشقى مخلوق هو المخلوق الذي أعجزته البطولة في أن يغيّر ما بنفسه. مخلوق كهذا لا بدّ أن يرمي بنفسه إلى التهلكة. وإذا لم يرمِ بنفسه إلى التهلكة فلا بدّ أن يرمي بالأغيار إلى التهلكة!

استنكر مزّار:

- الأغيار؟

- أجل! رمي الأغيار إلى التهلكة أهون في كل الأحوال من رمي النفس إلى التهلكة، برغم أن هذا العمل يستوجب وجود حيلة أدهى من مجرد الإلقاء بالنفس إلى التهلكة!

حدجه مزّار خلسةً، ولكنه أشاح ببصره ليستسلم إلى الفراغ الخاوي وهو يتماهى مع الفضاء السماوي العاري في قوس الأفق المزموم باغترابه في برزخ اللامكان. تساءل بغموض:

- يخيّل لعقلي المختوم بلعنة النسيان أن رسول خلاصي يخفي بقوله أمراً وراء الأكمة.

عاد «بسّا» يبتسم من وراء لثامه المشدود بقوّة حول وجنتيه الملوّحتين بالصَّهْد. قال:

ـ صدقت! هذا دليل على حضور فُضلة من الذاكرة برغم يقينك بفقدان الذاكرة. ما أردت أن أقول هو أن وباء الخليقة الذي تحدّثنا عنه داء خبيث ينهش نفوس الجميع بما في ذلك الفريق الآخر الذي يقبل على الربوع مدّعياً أنه يحمل في جعبته نبوءة الخلاص!

استبشر مزّار:

ـ تريد أن تقول أن البعبع نفسه لم يفعل ما فعل إلاّ لعجزه عن تغيير ما بنفسه؟

ـ يقين!

ـ تريد أن تقول أن ثلاثة أرباع أنبياء الخلاص هم سباع تتخفّى في جلود الحملان؟

استنكر «بسّا» هذه المرّة:

ـ ثلاثة أرباع؟ أراك ما زلت حسن الظنّ برسل الزور. الأولَى أن تقول تسعة أعشار بدل ثلاثة أرباع!

تساءل مزّار بعد وهلة:

ـ ما يحيّرني هو هويّة الرجاء الذي يمكن أن ينتظره هؤلاء البلهاء من بدعة التغيير التي تتحدّث عنها.

ـ ينتظرون ما ننتظره جميعاً في دنيانا. ينتظرون السعادة!

ـ السعادة؟

ـ ينتظرون السعادة من التغيير، فإذا خيّب التغيير أملهم في تحقيق السعادة قنعوا بظلّ السعادة!

ـ ظلّ السعادة؟

عاد «بسّا» يزفر الأنفاس بإعياء المهاجرين الأبديين، ولكنه ما لبث أن أجاب:

ـ السلطان!

التفت نحوه مزّار لفتة ملفتة للانتباه. ويبدو أنه اكتشف خطيئته في الإخلال بناموس الوقار فطأطأ أرضاً قبل أن يستفهم:

ـ لا أعرف كيف يمكن للسلطان أن يكون بديلاً للسعادة؟

ـ كل ما نفعل في دنيانا تنفيذ لمشيئة السلطان. ما فعلته أنت يوماً باسم أداء الواجب كان ممارسة حقيقية للسلطان، وما فعله البعبع يوم استغفلك لينزع عنك تاجك كان عملاً من قبيل ممارسة السلطان، وما أفعله أنا اليوم في تسيير قوافل التجارة أيضاً سلطان. الخلاصة أن الناس الذين أعجزهم العجز في أن يبعثوا أنفسهم بعثاً ليولدوا في الحياة مرتين لا يجدون ما يفعلوه بأنفسهم إلاّ أن ينطلقوا في مطاردة دمية ما يرون في سيمائها اللّهو، ويستشعرون في باطنها السلطان!

ـ ألهذا السبب قال الأسلاف أن حكم الناس هو عمل إنسانٍ بلا عمل؟

هبّ «بسّا» لموافقته:

ـ لهذا السبب قالوا أيضاً أن الحكم عمل لا يليق إلاّ بعبد العبيد!

طغى المعبود في عليائه فاشتعلت الأرض وحَمَت الحجارة وتراقصت أعشاب البرّ في ألسنة السراب. توقّف «بسّا» لينيخ مطيته فتوقّف مزّار أيضاً. قفزا إلى سرجيهما وأطلقا العنان لبعيريهما ففزّا بهما في وقتٍ واحد. انطلقا ليتجاورا بالبعيرين في مسيرهما ليستعينا على متاهة الأبد بالحيلة الوحيدة التي تقهر توالد الخلاء وهي الحوار.

قال «بسّا»:

ـ بلغني في الأسواق أيضاً أن خصمك ينوي تعميق النبع الذي يغذّي بحيرة «تيرا».

ترصّده مزّار خفيةً كأنه يحاول أن يقرأ في سيماء القرين ما أخفاه القرين قبل أن يهتف بلهجة استنكار:

ـ ما معنى تعميق النّبع؟

ـ تعميق النّبع يعني انتهاك حرمة اللقية التي أبدعت صنعها أمّنا الصحراء ووضعتها بين أيدينا بالمجّان؟

توجّع مزّار:

ـ أووه! ألم يكفِ الوغد انتهاك حرمات الناس حتّى يتوجّ رذائله بانتهاك حرمة الأمّ؟

ـ لكي يبرّر أمثاله أفعال المنكر في أنظار الناس لا بدّ أن يخترعوا رذائل أرذل!

سكت «بسّا». تابع امتداد المدى حتّى غرق ببصره في بحور السراب التي تدفّقت بسخاء في الأفق. أضاف:

ـ لقد التقيت داهيةً في سوق قدموس حدّثني كيف مرّ بـ «تيرا» قادماً من أوطان «آير». هناك استدعاه البعبع ليكشف له الغيوب في حال تنفيذ نواياه بشأن النّبع، ولكن أخبرني أنه لم يكن في حاجة لاستجواب الغيوب كي يدرك حماقة هذا العمل فارتكب بدوره حماقة عندما حذّر البعبع من مغبّة المساس بأي شيء صنعته الأمّ الكبرى، لأن الناس في رحابها ما هم إلا أطياف عابرة، وإذا تدخّلوا في شأن من شؤونها فذلك نذير شرّ لأن يد الإنسان ملوّثة بجرثومة الخطيئة، وكل ما مسّته هذه اليد تمسّخ وناله الدنس، فهل تدري بِمَ أجاب البعبع ضيفه عرّاف الأغراب؟

كان مزّار يصغي حبيس الأنفاس، مزموم السيماء، حتّى إذا سمع السؤال شعّت اللهفة في مقلتيه، ولكنه بذل جهداً بطوليّاً كي يقمع فضوله. قال «بسّا»:

ـ الداهية أنبأني أن البعبع ابتسم في وجهه بغموض قبل أن يوجّه له دعوة لتناول طعام العشاء ببيته الذي أطلق عليه الآن اسم «الباب العالي»، ولكن العرّاف قرأ في بسمته الغامضة رسالة

أخرى؛ رسالة شرّ بالطبع، فما كان منه إلاّ أن لبس الليل وفرّ من أرض «تيرا»!

تساءل مزّار غائباً:

ـ أتظنّ أنه كان ينوي البطش به؟

ـ بالطبع! وصيّة الداهية لم ترق له، لأنّها تتحدّى نواياه. وأمثال البعبع يرون في كل من واجههم بالحقيقة عدوّاً!

انتصب بعدها صمت. حانت من صاحب القافلة التفاتة لتفقّد طابور البعائر المحمّلة بالأوزار فتراءت في الخلف ظلالاً ممزّقةً تنتهبها أنياب السراب. حدج مزّار ثم قال:

ـ لقد استشرت الداهية في شأن العهد!

ـ العهد؟

ابتسم «بسّا». تكلّم بلهجة تفضح مزحة:

ـ ها هي الذاكرة تخذلك مرّة أخرى فتنسى ما لا يجب أن يُنسى!

ابتسم مزّار أيضاً:

ـ لا أخالك تتحدّث عن الانتقام!

ـ وهل هناك حديث يمكن أن يطيب في فم صاحب البليّة غير الانتقام؟

كتم مزّار فضوله ببسمة فهبّ لنجدته ربّ القافلة:

ـ لقد حدّثني بنبوءة خيّبت ظنّي بشأن تجميع الأنصار.

ـ خيّبت ظنّك؟

ـ قال لي أن الغيوب حكمت لك باستعادة عرشك في «تيرا»، ولكن في الوقت الذي لن تعود فيه بحاجة للعرش!

تبادلا نظرة. تساءل مزّار:

ـ هل هذه أحجية أم نبوءة؟

ـ النبوءات في أفواه الدهاة كانت دوماً أحاجي!

تطلّع إلى «بسّا» طويلاً ثم سأل:

ـ هل تثنينا أحجية عن عزمٍ توّجناه بعهد؟

اعترف «بسّا»:

ـ ما يستهويني في الأحجية دائماً هو قدرتها على أن تقول بالإبهام أكثر مما تقوله بالحرف!

غرق مزّار في غيبة. سأل:

ـ هل يظنّ معبود الإحسان الجليل أن للأحجية صلة بنبش حرم النّبع؟

ـ الداهية يقول أن حياة «تيرا» رهينة بحياة النّبع، وحياة النّبع رهينة ببكارة النبع!

ـ ألن يعني هذا أن البعبع سوف يشنق نفسه بنفسه، لأن النّبع إذا استبيح وَهَن، أو نضب، بدل أن يجود بالسخاء المرجو؟

ـ هذا ما أومأ إليه الداهية أيضاً برغم يقيني بأن المعنى الخبّىء في نبوءته أبعد منالاً!

استجار مزّار بالخلاء ببصره، كما استجار من طغيان الحرّ بشدّ لثامه حول وجهه. تمتم بنئيمٍ خافت كأنه يوجّه خطابه إلى نفسه:

ـ النيّة في انتهاك بكارة النّبع تحيّرني..

سمعه «بسّا» فعلّق على شكوك الرفيق:

ـ إذا شممت رائحة الهوى في مكانٍ فاعلم أن في المكان يجول شبح الشهوة لنيل المزيد!

ـ شبح الشهوة لنيل المزيد؟

ـ لم يكتفِ البعبع بالاستيلاء على واحة أنعمت عليها الصحراء ببحيرة لم تنعم عليها حتى على عمران الشمال، ولكنه يريد توسيع فوهة البحيرة للفوز بمزيد من نزيف الأمّ الذي ينوي استغلاله في تنمية حقول الملح من جانب، وفي سحب البساط من تحت أقدام «إمران» من جانب آخر!

أخفق مزّار في قمع مارد الفضول:

ـ هل تحدّثت عن سحب البساط من تحت أقدام «إمران»؟

ابتسم «بسّا». طارد السراب اللعوب وهو يلهو بشجيرات الأفق. أجاب:

ـ يقال أن واحة «إمران» تستمدّ نصيبها من المياه من الحوض ذاته الذي يستعير منه نبع «تيرا» نزيفه النفيس!

ـ عجباً!

ـ نبش بكارة النّبع حيلة لتركيع «إمران» أيضاً إلى جانب «إتران». تستطيع أن تقول أنها النيّة الخفيّة، أمّا تنمية حقول الملح فهي ذرّ للرماد في العيون!

بينهما انتصب صمت. ولكن الصمت لم ينتصب لا في السماء العارية من سحبٍ تبخّرت بسلطان المعبود المتربّع في عرش السماء، ولا في الخلاء المغمور ببحور السراب. في هذين البعدين الخالدين تكلّم الصمت بألف لسان محدّثاً الأجيال بألف نبوءة، بل بألف ألف نبوءة.

قال «بسّا»:

ـ حدّثني أحد تجّار قدموس أن نبعاً كان ينبثق من جبل «هنكاكا» ويغذّي مناجم الملح في «مجزّان» نضب بسبب ضربة صلد وجهها له أحد البلهاء طمعاً في نيل المزيد فما كان من النّبع إلا أن جفّ ومنع الهبة!

لاذ مزّار بالصمت مسافة. قال أخيراً:

ـ ألن يكون هذا دليلاً آخر على صواب تأويلنا لنبوءة عرّاف «آير» بشأن هلاك المسخ قبل أن تصل إليه يد الانتقام؟

أجاب «بسّا» بصوت اليقين:

ـ إذا وُلد الانتقام في قلب الضحيّة فإن السماوات السبع سوف تتحالف مع الأسافل السبعة لتحقيق النيّة حتى لو اعترضت السبيل ألف نبوءة!

22

في اليوم المشهود الذي حدّده «بسّا» للرجال لكي يكون يوم الحساب خاطب الكردوس قائلاً:

ـ من أراد منكم الأموال أغنيته أموالاً، ومن أراد منكم مجداً جعلته في أشعار صبايا القبائل بطلاً تتغنّى بسيرته الأجيال!

عَمَّ سكون مزموم قبل أن يضيف:

ـ فليقف عشّاق الذهب على الميسرة، وليُقْبِل عشّاق المجد على الميمنة!

واجه الكردوس المهيب بقامته النحيلة، المشطورة الحشا بالحزام الجلدي العريض، المنمنم برموز التعاويذ السحريّة قبل أن ينم النئيم عن جمع الفرسان: انسلخ عن اللُّمَّة رجل رَبْعَة، ملآن البدن، متوّج الرأس بعمامة بائسة تنتصب في شعفتها تميمة مدسوسة في قطعة جلد لوّحها صهد المعبود بالشحوب. دبَّ المحارب حتى وقف بين يدي مريد العهد. جابهه صامتاً بعينين لم يرفّ لهما جفن قبل أن يودع مقلتيه المستجيرتين بحجاب

اللثام بسمة ساخرة. تنحّى بعدها عن المجابهة لينحرف نحو الميسرة. طغى السكون زمناً قبل أن تلتحق به حواصب الرجال. تقاطروا على الميسرة أفواجاً حتى أيقن زعيم الحساب أن الكردوس كلّه سوف يكون من نصيب الميسرة. استولى عليه يأس فأغمض عينيه، وعندما فتحهما فوجيء بفُضلة المحفل تقبل على الميمنة.

أولئك كانوا رجالاً قلّة، أكلهم النحول، ونالهم الشحوب، كأنهم هياكل عظامٍ مستورةٍ بالأسمال؛ لأن عشق البطولة أمات في قلوبهم الشهوة إلى الطعام فرأوا الشبع عاراً، وضعضع أبدانهم السهر، لأنهم رأوا النوم استرخاءً لا يليق إلا بالنساء والأشياخ والعبيد!

نفث «بسّا» في ذلك اليوم المجيد أنفاس الغلبة، لأن رجال القبائل لم يخيّبوا ظنّه. أطلق أنين الحنين تعبيراً عن إكبار ثمّ تغنّى:

ـ قلّة تريد مجداً تُغني عن كثرة تريد غنيمة! لقد جرّبت في رحلاتي التجارية أن الكثرة التي تريد ربحاً كثيراً ما كانت في العنق عبئاً بدل أن تكون في الرحلة عوناً. شراكة الكثرة إذا كانت في الرحلة التجارية ثقلاً فكيف بالكثرة في الحملة الحربية؟

التفت زعيم الحملة إلى أعوانه في ذلك اليوم المشهود ليأمرهم قائلاً:

- أطعموا رجال الميسرة ذهباً وأخلوا سبيلهم، وأطعموا فرسان الميمنة لحوناً تكون لهم في الملحمة زاداً!

بعدها تقدّم من رفيق السبيل ليقول:

- هل تمكّنّا من تدشين الخطوة الأولى في طريق العهد؟

ترنّح مزّار كمريد الوجد الذي زعزعته لحون الحنين. في صدره رزٌّ صوت كصخب السكون إذا تجاوز البرزخ. ردّد بنبرة الموسوسين إذا أصابهم مسّ الشجن:

- سمعتُ اليوم ما لم أنتظر أن أسمعه من فم صاحب تجارة يوماً!

حدجه «بسّا» بفضول قبل أن يحتجّ:

- أيعقل أن تحسبني صاحب تجارة بعد كلّ ما اقتسمنا من قوت الروح، وبعد كلّ ما استقطعناه معاً من جسد أمّنا الصحراء؟

أخذه من يده واختلى به بعيداً. في رحاب السبسب قرّر أن يبوح له بسرّ:

- فليعلم قرين العهد أن التجارة لم تكن في حياتي سوى دمية أتسلّى بها في رحيلي الأبدي، لأنّك تعلم أن الإنسان لا يبعث من الموت حيّاً ليطمع في حطام الدنيا. الإنسان الذي عَبر إلى الجانب الآخر لا بدّ أن ينال من التحديق في الأبدية نصيباً من حكمة حتّى لو كان جهولاً، لأن بمسّ الحقيقة فقط نصير

صحبان رؤيا أيضاً إلى جانب الرؤية. ولهذا السبب اتخذت من التجارة التي تتحدّث عنها طريدةً في اغترابي ليقيني بأن السراب وحده لا يصلح رفيقاً لمن احترف الهجرة، فهل بلّغت؟

ركع المعبود في رحلة الخلود إلى الغرب ففاض بالأضواء المسربلة بلون الدّم على استواء المهمَه المؤدّي إلى أحاضيض الوعوثة حيث تستقرّ واحة «تيرا». في مثل هذه الأوقات يستعير السبسب الخالي سيماء المعبد دائماً: فيه يفيض قلب الشعراء بالإلهام، ويقتنص فيه الدهاة النبوءة، ويرى فيه الرئيّ الرؤيا، ويحلو لأهل الوسوسة أن يمارسوا الصلاة، ويتبادل في رحابه العرّافون مع حكماء الجنّ الأحاجي بالصوت المسموع.

«بسّا» أيضاً هسهس في قلبه نئيم كالوسوسة المجهولة فأطلق أنّة شجن قبل أن يتغنّى:

ـ بالأمس اقترحت أن نباغت البعبع في الليل لأنّك ترى أن الحرب مع ذوي الخسّة خدعة، ولا تدري أنّك بهذا الرأي خيّبت ظنّي حتى لا أقول خذلتني. هل تدري لماذا؟

لم ينتظر جواباً، فأضاف:

ـ ما معنى أن تكون الحرب خدعة؟ أن تكون الحرب خدعة يعني أن تكون الحرب مكيدة. والمكيدة، كما تعلم، من شيم المخلوق الخسيس وليس من شيم المحارب النزيه. فهل غلبة تلك الغلبة التي ننالها بالخسّة، أم أنها هزيمة؟

جادل مزّار:

ـ ظننت أن العدوّ الذي باغتني في غفلة من أمري ليس جديراً بالحرب النزيهة!

ـ ها أنت تعترف بأنّه باغتك في غفلة من أمرك! وهو ما يعني أنه لم يفعل إلا أن انتهز فرصة ضعفك. أي أن الضعف (أو الاسترخاء كما تسمّيه) كان خطيئتك أنت لا خطيئته هو. باليقظة غلبك البعبع، وبالاسترخاء هزمتَ نفسك قبل أن يهزمك هو، أيها النبيل مزّار!

غمغم مزّار:

ـ الاسترخاء، يا معبود الإحسان الجليل، مكوسٌ يدفعها كل من ارتضى الركون إلى الأرض.

أنصت «بسّا» لأغنية الغروب في حرم السكون، وغاب ببصره في سباسب اللانهاية قبل أن يقول:

ـ إذا كان البعبع قد أخذك بالاسترخاء فتستطيع أن تأخذه بخصلة أقبح من الاسترخاء اعتادت الأرض أن تودعها في قلب كل من استسلم لها. فهل تدري ما هي؟

استفهم مزّار بإيماءة فأضاف «بسّا»:

ـ هذه الخصلة الرذيلة تتخبّأ مع خصال رذيلة أخرى في تلك الأماني الثلاث التي يوصينا الأوائل بأن نتمنّاها لعدوّنا إذا شئنا له

هلاكاً قريباً وهي: ثروة بلا حدود، ونساء بلا حدود، وسلطان بلا حدود!

التقط أنفاساً. استعار من الوسوسة وَحْياً:

ـ المال يورّث الجُبْن في زمنٍ أقصر مما تتخيّل، والمخدع الذي ترتاده النساء يورث الوهن في زمنٍ أقصر مما قد تتخيّل، والسلطان إذا زاد عن الحدّ ورّث رذيلة ثالثة هي الخوف! فهل تشكّ في مكيدة أقوى مفعولاً من مكيدة هذا الثالوث الرهيب المؤلّف من الوهن والجبن والخوف الذي صنعه عدوّك لنفسه بيديه؟

التقط أنفاسه مرّة أخرى. تساءل بكلمة ختام:

ـ ألم يهزم البعبع نفسه بنفسه قبل أن نهزمه؟ أليس من حقّنا بعد هذا أن نأتيه في وضح النهار بدل أن نلبس في الحملة ثياب الظلام؟ بل أليس من حقّنا أن نبعث له برسول ينبئه بعزمنا؟ ليس هذا وحسب أيها العزيز مزّار: ألا ترى أن من الواجب الذي تتغنّى به أن نقبل عليه عراة من السلاح لنأخذه في بيته العالي (كما أطلق على مخبئه) بأيدٍ عارية كما يؤخذ الفأر في جُحْرِه؟!

23

زمان الصحراء، كمكان الصحراء، لا حضور له في ساحة الدنيا.

زمان الصحراء يغترب عن نفسه كما يغترب مكان الصحراء عن نفسه، لأنّه لغزٌ يتنكّر لطبيعته كزمانٍ، كما يتنكّر مكان الصحراء لحقيقته كمكانٍ.

زمان الصحراء ليس زماناً لأن فيه تختفي وحدة قياس الزمان كالأيام والأشهر والأعوام فيستوي وقت الغمضة بوقت الأبد، لأنه انعكاس لمكانٍ لا يعترف بحضوره في المكان؛ لأن الأجيال التي تسكن المكان ترفض الأثر استصغاراً لمهلة تافهة هي غنيمة زمانٍ لا يمهل، ولذلك رأت من حقّها أن تسنّ لنفسها الناموس الذي يستهين بالخليفة فلا يراهن على وهم البقاء في الأثر.

زمان الصحراء زمان لا دنيوي، بل أبدي مثل مكان الصحراء الذي لم يكن يوماً مكاناً، ولكنه ظلّ مكانٍ. في برزخه تتماهى الطبيعة الأرضيّة بما يتخفّى وراء الطبيعة الأرضية.

اليقين الصحراوي بالحضور في زمان اللازمان ومكان اللامكان هو الذي أوجد ديانة العدم التي تتردّد في وصيّة الناموس الصحراوي الضائع المسمّى «آنهي» القائلة: «ميدييا‌غز» تعبيراً مميتاً عن الإحساس بضياع كل شيء: ضياع الزمان، ضياع المكان، ضياع الناموس، ضياع الأجيال، ضياع الوصل بالأجيال، ضياع الإنسان في علاقته بأخيه الإنسان، ضياع الإنسان في علاقته بباطن الإنسان. أي أنه ذلك العالم المحكوم بأقسى أجناس العزلة.

العزلة؟

بلى! العزلة! ولكن أي عزلة؟

إنها العزلة التي كانت دوماً معبد الإنسان الدَّيِّن. معبد الإنسان الأخلاقي؛ لأن العزلة وحدها كانت منذ البدء وطن التخلّي الذي أوجد بأعجوبة التأمّل إعجاز النبوّة: نبوّة الخلاص الذي يحيي، لا نبوّة الحرف الذي يميت!

24

يُروى أن مريد العهد اعتلى رابية تشرف على أسوار «تيرا» ليخاطب كبكبة جنده بالقول:

ـ بالأمس قررنا أن نقتحم ديارهم في وضح النهار بدل أن نلبس ظلمة الليل كالخفافيش لا لنتباهى أمام قبائل اليوم أو أجيال الغد بالإقدام كما قد يظن البلهاء، ولكن لنلقّنهم درساً في النزاهة. ليس هذا فحسب، يا صحبان البطولة، ولكننا أرسلنا للعدوّ رسولاً ينبئه بميعاد قدومنا لكي يعدّ العدّة فلا يتحجّج بأخذنا له على حين غرّة!

كان قبس الفجر قد تمادى في قطع دابر غياهب الغلس فتحمّم الصحصح القاسي المنثور بنبوتٍ شاحبة لا تزيد الصحصح إلا وحشةً، واغتراباً. ولكن الشمال كان يستميت فيتنفّس بين الحين والآخر أنساماً واهنة، ولكنها مشبعة برطوبة تصلح برهاناً على النيّة في الدفاع عن النفس أمام زحف الصحراء الوئيد في حملتها على أوطان الشمال بدعمٍ من ريحٍ

عنيدٍ أطلقت عليه الأجيال اسم «السّموم» اعترافاً بسلطانه وإكباراً لقدرته على محو كلّ ما يدل على وجود حياة وتحويله إلى يباب.

تغسّل «بسّا» في ذلك الصباح بأول خيوط الفيوض التي جاد بها المعبود عند طلّته البكر من وراء الرابية. التقط أنفاساً قبل أن يلتفت إلى مزّار المنتصب إلى جواره قبل أن يوصل ما انقطع من خطابه:

ـ ليس هذا وحسب، ولكننا لن نلجأ إلى قطع رؤوسهم، ولا حتى إلى بتر أيديهم اليمنى لنشلّهم مستغلين بهذا علمنا بأنهم لن يستطيعوا أن يستخدموا أيديهم المبتورة الأصابع في الإمساك بالأسلحة، كما أوصى أحد دهاتنا بالأمس، بل لا أريدكم أن تستلّوا السيوف في وجوههم أيضاً، ولكن لوّحوا بالسياط في وجوههم وسوف ترون أي منقلب سينقلبون!

كانت الدهشة قد استولت على سيماء الفرسان، في حين همهم مزّار ببرطمة مبهمة تعبيراً عن استنكار، ولكن «بسّا» تجاهل برطمته ليضيف:

ـ هل تدرون لماذا توجّب علينا أن نفعل ذلك؟ توجّب علينا أن نفعل ذلك لأننا لا يجب أن ننسى أننا لا نحارب اليوم رجالاً كانوا بالأمس رجالاً، ولكننا نحارب مسوخاً مسكونة بالعبودية. والعبيد كما تعلمون لا يحاربون، ولكن يعاقبون. هذا يعني أننا

يجب أن نذكّرهم بطبيعتهم بتلويح سياط العقاب في وجوههم بدل أن نكبرهم ونوحي لهم بعظمة شأنهم لأنّهم سيغترّون وسينسون عبوديتهم وعقمهم وبكمهم وفقدان ذاكرتهم وسيعاملوننا معاملة الندّ للندّ فيما إذا ارتكبنا حماقة إبراز السيوف في وجوههم فيستنصروا ويستميتوا. ما أعنيه، يا عشّاق المجد الذين لا يخشون شيئاً كما يخشون العار، هو أننا لسنا معنيين بشلّ أبدان أولئك البؤساء الذين يقبعون في الجحور كالنساء مع معبودهم، ولكننا معنيون بشلّ أرواحهم. هل تدرون لماذا؟

سكت. زفر أنفاساً كالصهد مراراً. أضاف:

ـ لأني لا أريد أن تردد الأشعار التي ستتناقلها أجيال الصحراء أن الأسود التي انتزعت الحرية لتاج الصحراء «تيرا» نالت مجداً ككل الأمجاد التي نالها أبطال الأمم التي خلت في الصحراء من قبلهم. فهل تدرون ما هو جنس هذا المجد؟

سكت طويلاً قبل أن يضيف بعينين دامعتين:

ـ إنه المجد الخالي من الحكمة!

25

عندما سقطت «تيرا» في أيدي الأطياف التي هوت في جوفها كأنها تنزّلت من السماء في أصيل ذلك اليوم الذي صار سيرة تتردد على ألسنة الأجيال، ضحك مزّار وتلوّى من فرط النشوة وهو يرى ألسنة السياط في أيدي الأبطال تلهب أبدان الملّة الممهورة بختم اللعنة فيفرّون وهم يولولون ولولة الواعية على الأموات.

سار إلى جوار «بسّا» وهو يضحك بأعلى صوت حتى انتاب القرين شكّ في قواه العقلية. سارا نحو «البيت العالي» (حيث اختبأ البعبع) متجاورين مغمورين بشعاع المعبود المنهمك في إقامة حفل الوداع الخالد في الأفق المسربل بالوسم القاني كخضاب الدّم، كأنه يومىء في مراسم رحيله بالرسالة المجدولة بروح الشعر التي تقول أن حضور المعبود في ساعة رحيله أقوى منه في ساعة ميلاده، وكل من لم يقرأ في الغروب حضور المعبود في قلبه (لا في صحاصح الصحراء) فذاك مخلوق لم

يعش يومه كما يجب أن يعيش الإنسان يومه. لأن الصلاة أن نتماهى بالمعبود لا أن نشاهد آيات المعبود.

في هذا الوقت المجبول بالقداسة جعجع مزّار بالضحك فأنكره «بسّا» وانتهره بضيق:

ـ أيها النبيل مزّار هذا لا يجوز!

ولكن الجنون في قلب مزّار لم يرتدع فاستجار القرين بالوصيّة:

ـ هل نسيت حكمة الأجيال القائلة بأن من ملأ فمه ضحكاً ملأ فمه دموعاً؟!

لم يكمل «بسّا» قراءة الوصيّة حتى قطع مزّار ضحكته فجأة. قطعها فجأة كأنه ابتلعها بلعاً. ظنّ القرين أن الفجاءة كانت استجابة لنداء الأسلاف في الوصيّة لو لم يرَ قرينه يهوي أرضاً. هوى ببطء كأن الإرادة فرّت من الجسد فرار الفجاءة. هرع إليه ليحتويه بين يديه قبل أن يصطدم بالأرض التي يخيّم في فضائها القسطل، ولكن الشقيّ أفلت في رحلته نحو الترباء لينكبّ على وجهه. انتشله من الأرض ليأخذه بين يديه، ولكنه في اللحظة التي رأى فيه وجهه اكتشف «بسّا» أنه أفلت مزّار إلى الأبد، وما حمله لحظتها بين يديه لم يكن سوى جثّة!

انحنى فوقه ليتبيّن في ثنية اللثام عوداً غائراً لينتهي بجرمٍ غريب كنصل السهام التي يتسلّى بها الغلمان لاقتناص الطير. في

عيني القتيل ما زالت تومض الضحكة، ما زالت تلتمع إيماءة البهجة، ما زالت تهيمن نشوة الغلبة، ما زالت تطغى.. السخرية!

سجّى القتيل أرضاً وركع فوقه: نحّي طرف اللثام، أدرك أرومة العود حيث استقرّ رَهَب النّشاب. حول الرهب لم يعثر على أثر للدم. لم يعثر على قطرة واحدة من دمّ. تشبّث بالعود. انتزع العود فتخلخل رأس الرهب. احتال على النصل قبل أن يفلح في استلاله. تفحّصه فوجده نشّاباً طفولياً حقّاً. لحظتها فقط انبثق الدم. انبثق دم شحيح.

فوق رأس مريد العهد ترجّل أحد الفرسان. ركع فوق الجثمان صامتاً. تبادل «بسّا» مع الفارس نظرة كئيبة. هتمل:

- سقط ضاحكاً!

استفهم الفارس بإيماءة، فأضاف:

- فقد ملكه يوماً لأنّه استخفّ بالمعبود في ساعة الغسق، واستعاد ملكه اليوم في ساعة الغسق، ليفقده من جديد بنوبة الضحك!

قال الفارس:

- حقّق أمله في اليوم الذي لم يعد في حاجة لتحقيق أي أمل!

- صدقت! هذا ما قاله عرّاف «آير» في نبوءته أيضاً.

تناوله «بسّا» بين يديه فوجده هشّاً كحزمة قشّ. لمح يده المبتورة الأصابع فتخيّل أنها ازدادت قصراً ونحولاً وضموراً. سار به نحو البيت الذي ابتناه يوماً ليكون له بيت الدنيا، ولم يخطر له على بال يومها أنه سيكون له بيت الأبدية. حول البيت الذي صار على يد الغاصب «البيت العالي» تحلّق الجند ليشكّلوا طوقاً حول مخبأ البعبع. لملاقاتهما أقبل فارسان يجرجران غلاماً طويل القامة، نحيل البدن، غائب المقلتين، يسيل اللعاب سخيّاً من فمه. دفعه أحدهم نحو مريد العهد قائلاً:

ـ إنّه الفاعل!

أوضح الفارس الثاني:

ـ أوباش البعبع قالوا أنه ابنه!

توقّف «بسّا» حدّق في سيماء الأبله طويلاً. سأل:

ـ هل تدري، أيها الشقيّ، ماذا فعلت؟

حدجه الغلام بعينين زائغتين، ثم أراق دفعة جديدة من اللعاب قبل أن يبرطم:

ـ إنه أبي!

تفحّصه «بسّا» طويلاً قبل أن يسأل:

ـ هل تدري، أيها الشقيّ، ما معنى أن يقتل الإبن أباه؟!

بحلق الغلام بمقلتيه الضائعتين ثم أطلق موجة لعاب قبل أن يجيب:

- في حضور الأبناء غياب الآباء!

- ماذا؟

- سمعت أبي يوماً يقول أن في ميلاد الأبناء يكمن فناء الآباء!

تبادل «بسّا» مع فرسانه نظرة. سأل وهو يحتضن رفيق رحلته القديم كأنه يريد أن يخفيه في صدره. كأنه يريد أن يخفيه في قلبه. تهدّج صوته عندما سأل هذه المرّة:

- هل كرهته إلى هذا الحدّ؟

لوى الغلام رقبته كالأخرق قبل أن يجيب:

- بل أحببته!

استنكر «بسّا»:

- أحببته؟!

- نحن لا نميت إلاّ من نحبّ!

- ماذا؟

بحلق الغلام بعينيه الضائعتين فسطع في مقلتيه ضياء الغروب الدّامي قبل أن يقول:

- هذه وصيّة سمعتها من أبي!

هتف «بسّا»:

- أيعقل أن تسمع من فمه وصيّة كهذه ثم تتذكّرها بعد بتر الأصابع الثلاثة؟

بصق الغلام دفعة لعاب أخرى. ترجرج في وقفته قبل أن يجيب:

- إنّها الشيء الوحيد الذي لم يستطع النسيان أن يأخذه منّي أبداً!

26

دخل «بسّا» بوابة «الباب العالي» المزعوم مع انطفاء آخر خيط في شعاع المعبود. وقف بِحمْلِه في البرزخ الفاصل بين البستان ومدخل القصر. تأمّل المدخل المحصّن ببابٍ عظيم موسَّم برموز المعبودة «تانيت» المثنّاة الزوايا. ركع في الفناء المفروش بحبيبات الحصباء ليضع حمله على الأرض بحرصٍ شديد. تفقّد المكان فأبصر جذع شجرة نخيل بالقرب. نهض ليجلس على الجذع. عاد يستوضح المكان بنظرة ضائعة. حول الباب برموزه المرصّعة بعروق الفضّة لاحظ وجود كبكبة من فرسان الحملة يطوفون في المدخل الموصد ذهاباً وإيّاباً.

تطلع إلى أعلى البنيان فرأى جنده أيضاً وهم يلوّحون بالسياط النارية في الهواء ويطلقون صيحات البطولة لإرهاب العدوّ. في الخارج كانت الجلبة ما تزال تُسمع من حينٍ لآخر فأدرك أن عشّاق الأمجاد لم يقنعوا باستسلام أتباع البعبع فطاردوا فلولهم في الزوايا والأزقّة تمسّكاً بعرى اليقظة وتطهيراً لجيوب المقاومة.

فوق رأس «بسّا» وقف أحد الأجناد. كان الفارس نفسه الذي هرع لنجدته لحظة سقوط رفيق السبيل بقامته النحيلة كأنّها فزّاعة الحقول، ولكن مقلتيه مضتا تتقدان بألقٍ شديد كأنّ المعركة في تقديره لم تنتهِ بعد، أو بالأصح، لم تبدأ بعد.

تردّد لحظات قبل أن يلقي بسؤال:

ـ هل أجيئك بالأسير؟

شيّع إليه «بسّا» بصراً غائباً، تفكّر لحظات. أجاب:

ـ بل جِئْني بالأسيرة!

تردّد الفارس أيضاً. ولكنه انطلق نحو الباب الموصد المزيّن بالنمنمة السحرية المحفورة بماء الفضّة. هناك تبادل مع الأحراس نئيماً لم يتبيّنه «بسّا». استعان الفارس بالأحراس لفتح الباب الهائل الحجم، المتقن الصُّنْع، المحكم الإغلاق.

فوق البستان تنزّل الغيهب فتنفّست النّبوت بالعبير الذي لم يستنشقه منذ أمدٍ بعيد، وربّما لم يستنشقه أبداً. أغمض عينيه استجابةً للذّة الرائحة المنبعثة من الأرض الطينية المبلّلة بالنداوة، والأريج الذي يغزو أنفه ليتسلّل إلى رئتيه ليحيي فيه حنيناً غامضاً كان عليه أن يستجوب الذاكرة ببسالة كي يستعيد أين ومتى استنشق شذى زهرة آخر مرّة. بلى! بلى! ذلك كان يوم الخروج من برزخ الحمادة الغربية ونزول أرض «تينغرت» الوسطى. كان يوم الخلاص الذي لا يُنسى لأن وطن الأسلاف أبى إلا أن

يستضيفه بضروب الزهور وحقول العشب، وكنوز الكمأ، في أول خطوة في صراط العودة إلى الوراء. هذه العودة التي استمرت منذ ذلك اليوم لتتوّج بأحداث هذا اليوم. فهل يعقل أنه أقبل لا لينتقم لرفيقه مزّار تنفيذاً لرباط العهد، ولكنه أقبل لينتقم لنفسه؟ ألم يحذّر مزّار بالأمس من استعارة دور الأقدار في لعبة الانتقام فلا تلبث الأقدار أن تنتقم منّا جزاء تعدّينا على سلطانها الذي جعل الانتقام حكراً على مشيئتها وحدها؟ ألم تصدق وصيّته لرفيقه فلقي مصرعه كما تنبّأ تماماً؟ ألن يعني هذا أنه أيضاً..

في تلك اللحظة فقط رفع بصره ليجدها تقف أمامه كما وقفت قديماً. وقفت باستكبارٍ عَهَدَهُ فيها قديماً كأنّها لم تكن يوماً مخلوقةً أرضيّة. كأنها لم تكن يوماً امرأة، ولكنها بحسنها المميت كانت منذ الأزل معبودة المحال البعيدة المنال. معبودة المحال هذه هي التي تجاسر مراراً فأطلق عليها نعتاً بشعاً هو: السّلفعة! فهل يُصدِّق هذا؟

وقفت بقامتها الماردة فوق رأسه، تتدثّر القوام بلحافٍ شفٍّ يفضح تقاسيم القدّ وانهضام الحشا. في خلل اللحاف رأى أيضاً جدائل الشعر السخيّة. برغم هجمة العتمة. في عينيها النجلاوين كمقلتي غزالة ضبط بسمة غامضة امتزج فيها الاستنكار والاستهتار بالاستكبار بالفضول، فأيقن أن الأعوام التي اتخذت

منه خصماً لدوداً كانت لها رسول رحمة، لأن بهاءها في عشرين سنة لم يزدد إلا طغياناً. وشوشت بوسوسةٍ مهمومةٍ كأنها نداء، كأنّها لحن من لحون الحنين المنذورة إلى معبودة الأجيال «تانيت». وشوشة طوّحته إلى رحاب الزمان الضائع عندما نصّبها في قلبه معبودة جسّدت له لغز الجمال. جسّدت أحجية السعادة. جسّدت طلسم الطلسمات الذي سمع دهاة القبائل يطلقون عليه اسم الخلود.

همَّ بأن يسدّ أذنيه بأصابعه ليميت الوجع في المهد. ليميت الوجد في المهد. ليخنق عودة الزمان المفقود في نداء الحنين الملحون. أغمض عينيه بقسوة ليكتم أنفاس الانفعال، ولكن خنق الانفعال تحوّل دمعاً في المقلتين، لأن الأهداب كانت مبلّلة عندما فتح عينيه. استبدلت النبرة بعدها لتقول بلسان السخرية:

ـ أيعقل أن يجلس رسول الفروسية في حين تنتصب فوق رأسه الحسناء وقوفاً على القدمين كأنها حرس عليه؟

تململ كأنه تأهب ليفزّ واقفاً، ولكنه سحق لهفة القلب بإرادة بطولية قبل أن يجيب:

ـ أنتِ تنسين اليوم أنّك أسيرة حرب، ولست بحسناء!

ابتسمت. ترصّد بسمتها في العتمة فأصابته الفتنة في البسمة بوخزة في القلب. ولكنه مضى يقلّب فتخةً في سبابته ويتظاهر

باللامبالاة. قالت بجرأتها القديمة التي اتخذها مبرّراً للقب السلفعة الذي أطلقه عليها:

ـ لا يليق بالحسناء إلا أن تجلس في الأحضان سواء أكانت حسناء في قصر أم أسيرة في حرب!

تكلم مجتنباً النظر إليها لئلاّ يخذله القلب عدوّ الواجب الأبدي:

ـ ألهذا السبب تتنقّل المرأة بيسر من مخدع رجلها الذي هُزم إلى أحضان الرجل الذي انتصر؟

ـ يحدث هذا لأن ما لا تطيقه المرأة في الرجل هو الهزيمة!

ـ حقّاً؟

ـ الهزيمة هو ما لا تطيقه المرأة في دنياها، فكيف تريد أن تطيق المرأة الهزيمة في رجلها؟

سكتت ثم أضافت باستحياءٍ مفتعل:

ـ انتقال المرأة إلى أحضان صاحب الغلبة ما هو إلاّ انتقام المرأة من الرجل جزاء هزيمته، لأن ما لا يُغتفر في ناموس المرأة هو الهزيمة!

ابتسم صاحب الغلبة بمرارة. استنكر:

ـ ولكنّك تسللتِ إلى أحضان رجلٍ تجري في عروقه دماء العبيد وهجرتِ مخدع القرين قبل أن يُهزم!

استعارت مخالب اللبوءة. المرأة تستعير مخالب اللبوءة عندما تقرّر الدفاع عن النفس:

ـ القرين الذي تتحدّث عنه هزم نفسه قبل أن يُهزم يوم فقد عرشه!

ـ هل تسمّين هزيمة انهمام الرجل بأداء الواجب نحو وصايا السلف؟

ـ ها أنت تتشدّق بالواجب كما تشدّق به القرين الذي تتحدّث عنه! ألا تعلم، أيّها الرجل، أن الواجب هو العدوّ الثاني في عرف المرأة بعد الهزيمة؟

استمات «بسّا»:

ـ ما أعلمه أنك كنت أعلم الناس بهوَس مزّار بالواجب قبل أن يقع عليه اختيارِكِ من دون الطرفين الباقيين في أثافي مريديك!

تململت في وقفتها، ولكن صاحب الغلبة طعن قلبه بإرادة لا تُطاق كي يتجاهل استغاثتها المكتومة. قالت بلسان اللبوءة التي تولّت الدفاع عن النفس:

ـ لقد عيّرتني حتى الآن باستسلامي لأحضان إثفيتين من ثالوث الأثافي كما راق لك أن تعبّر، ولا تدري أن رهاني في الحالين كان على الركن الثالث!

هتف «بسّا»:

ـ الركن الثالث؟

أجابت ببرود:

ـ لا يجب أن تتغابى لأنّك أعلم الناس بأن الركن الثالث هو: أنت!

كاد صاحب الغلبة أن يهبّ واقفاً. ولكنه تمالك نفسه ببطولة أخرى. حَشْرَج:

ـ إيّاكِ أن تتملقيني!

ولكنها زفرت باستخفاف وهي ترفع رأسها نحو حشود النجوم في السماء كأنها تنوي أن ترفع عقيرتها بغناء:

ـ أنت تسيء الظنّ بي كثيراً إذا كنت قرأت في مسلكي ما ينمّ عن استهتار لأني لم أفعل إلاّ أن استجبت لنداء الدمّ في عروقي!

ـ نداء الدّم؟

ـ نداء الدّم هو نداء ناموس الأنثى القديم الذي لم يرَ الرجال إلا قطيعاً من الذكور عليها أن تستأثر بهم جميعاً دون بقيّة النساء لتنجب من أصلابهم ذريّةً وفيرة وفرة الشعر في رأسها، لأن تلك وصيّة الصحراء الأمّ التي شاءت حكمتها أن تنصّب المرأة للإنابة عنها في حمل رسالتها، لا الرجل!

التقطت أنفاسها. أضافت:

ـ رجال اليوم يسمّون المرأة بمنطق كهذا غانية. أليس كذلك؟ أم الأفضل أن نستخدم لقب السلفعة كما يروق لك؟

كلمة «السلفعة» رنّت في أذنه بوضوح لتتحوّل طعنة في القلب. رأى أن يسألها عن الكيفية التي بلغها فيها نبأ اللقب، ولكنه تذكّر أن المرأة كصاحب السلطان الطير هو الذي يتولّى نقل الأنباء إلى آذانهم، فتراجع ولاذ بالفتحة الفضيّة لينفث فيها بلبلته. قالت:

ـ لا يكفّ رجال القبائل عن تصديع رؤوسنا بالتغنّي بوصايا السلف، وبترديد نواهي «آنهي» الضائع، وبالتشدّق ليلاً ونهاراً بسيرة الواجب، ويستنكرون إذا تمرّدت الأنثى على قدرها كأنثى ولبّت نداء الصحراء (لأنها هي الصحراء وليس الرجل) التي لا تعترف باللّغو، ولكنها معنيّة بالحقيقة الوحيدة التي لا تقبل الجدل، لأنّها هي الحياة، ألا وهي زرع الأرض بالذريّة، بالورثة، بالأخلاف، بالغوغاء التي سترث الأرض وتنقذ الصحراء من قدر الفناء. عندئذٍ تتنادى كباكب الرجال، وتلتئم في الفدافد عمائم الحكماء ليعلنوا صاحبة النداء غانيةً، أو سلفعةً، كما يروق لك أن تقول!

أقبل الأعوان بأكوام الحطب. أوقدوا في طرف البستان ناراً. في ضوء ألسنة اللهب تبيّن صاحب الغلبة بسمة رفيق الأمس مجبولةً بالغموض والضحك والسخرية. خاطب المعبودة المنتصبة على رأسه:

ـ كيف تريدين ألا يطلق حكماء القبائل على المرأة التي ترى في كل الرجال غنيمتها غانية أو حتى سلفعة؟

أطلقت فحيح استخفاف قبل أن تهاجر برأسها إلى الأعالي:

ـ هل يسمح لي صاحب الغلبة بسؤال؟

لم تنتظر جواباً. أضافت:

ـ كم ركنٍ في علامة المعبودة «تانيت»؟

لم يجب فأضافت:

ـ العلامة أيضاً مثقّاة، أليس كذلك؟ علامة المعبودة الأولى مثلثة الأركان. هل تعلم السرّ؟

تنازلت لتختلس نحوه نظرة زعزعته، ولكنه تظاهر بالانهماك في مداعبة فتخة الفضّة في سبّابته، فأضافت:

ـ الأركان الثلاثة مستعارة من صورة القلب الذي لن يكون قلباً إن لم يعشق ثلاثاً!

ـ يعشق ثلاثاً؟

ـ بلى! يعشق ثلاثاً في مرّة!

استنكر:

ـ في مرّة؟

ـ هذه هي الخطيئة التي اقترفتها يوماً، أو فلنقل أن هذا هو

الواجب الذي اقترفته يوماً بتعبير معشركم، لأنال لقب الغانية ثمناً. .

سكتت. حدجته بنظرة ذات معنى. أكملت بلهجة سخرية:

ـ أو لقب السلفعة!

كابرت مرّة أخرى لتخاطب الحضيض من مملكة استكبارها:

ـ ما فعلته هو ما تفعله كل النساء برغم أن القلّة هي التي تملك الشجاعة لتضع نواياها موضع التنفيذ: رجل للدنيا، وثانٍ للقلب، وثالث للهو!

أطلقت ضحكة لأوّل مرّة. ضحكة أنكرها المريد برغم أنه اهتزّ لها قلبه طرباً حتى أنه همس دون أن يدري:

ـ أدفع الغلبة ثمناً لو بحتِ لي بسرّ الثالوث!

ولكنّها حدجته باستعلاء قبل أن تجيب:

ـ أنت لست بحاجة لدفع غلبتك ثمناً لأنّك أول من يعلم بأن أنبل ركن في الثالوث لم يكن يوماً، ولن يقدّر أن يكون أبداً سوى رجل واحد هو: أنت!

ـ أنا؟

أفلتت منه اللفظة كجمرة. أضاف:

ـ لو كنتُ حميم القلب كما تدّعين فلماذا كنتُ الوحيد الذي دَفعتِه للاغتراب؟

ـ لأن قدر الحميم أن يغترب عن قلب الحميم، وإلاّ لما استحقّ لقب الحميم!

لحظتها انهار صاحب الغلبة لينقلب مخلوقاً مغلوباً على أمره:

ـ أنتِ لا تتخيّلين الآن، كما لم تتخيّلي بالأمس، أنك قتلتني. لم تقتليني مرّة، ولكنّك قتلتني بعدد أركان قلبك الثلاثة: مرّة يوم هِجْرَتَك المفاجئة من نجوع «تارات» لتختاري مزّار. ومرّة ثانية يوم بلغني نبأ حلفك اللئيم مع مملوكي «آكلي». ومرّة ثالثة يوم تآمرتِ معه للاستيلاء على عرش المغدور البائس المسجّى أمامنا الآن!

ـ أي الأمرين أهون: ميتة تحيينا، أم حياة تميتنا؟

ـ لم يفلح في بعثي إلى الحياة حقّاً إلا هذا الميّت الذي يرقد الآن أمامي!

ـ تخطىء!

حدجها مستفهماً فأوضحت:

ـ تريد أن تقول أنه أماتك يوم استصدر في حقّك حكم الموت من مجلس الأعيان جزاء جرم الاستيلاء على صرمة إبله، أليس كذلك؟ اعلم، إذاً، أني أنا من أوحى له بالحكم، وأنا أيضاً من أوحى له باستبدال حكم الموت بالمنفى في آخر لحظة!

هبّ صاحب الغلبة واقفاً كاللديغ:

ـ أنتِ؟

تضاحكت باستخفاف قبل أن تجيب:

ـ كأنّك لا تعلم أن أمر وليّ الأمر بيد امرأة وليّ الأمر، لا بيد وليّ الأمر. إنها الحاكم الذي يحكم من وراء قناع أجوفٍ اسمه الحاكم. هذا ما كان منذ الأزل، وسوف يكون إلى الأبد!

نزلت بكبريائها أرضاً. تأمّلت ردّة الفعل في سيمائه بفضول قبل أن تضيف:

ـ لو اخترتك بالأمس بديلاً لصاحب الدنيا لكنتَ أنت المسجّى أمامي الآن في انتظار المحفّة التي ستشيّعه إلى الضريح. ولو اخترتك للمكيدة بديلاً عن صاحب اللهو «آكلي» لكنت أنت الأسير الذي يتمرّغ الآن في دهاليز السجن في انتظار حكم صاحب الغلبة. لا أظنّ أنك في حاجة لتسمع منّي كلمة الاعتراف التي تقول أني سحقتُ قلبي سحقاً لكي أتنازل عنك للغربة، لأنّ ذلك لن يكون في فمي الآن سوى ابتذالاً أوصى بإنكاره القدماء الذين يروق لكم أن تتغنّوا بحكمتهم، لأني أعلم بحدس الأنثى التي نصّبتها هذه الصحراء على الدنيا لتكون لها في الأرض خليفةً، أن التخلّي عنك لا نيلك هو السبيل الوحيد الذي سيبقيك على قيد الحياة. هل تعرف لماذا؟ سكتت. سرت في أطرافها رجفة قبل أن تضيف:

ـ لأني أعرف أني لو نلتك لقتلتك، لأننا بالحبّ لا نحيي من نحبّ، ولكننا بالحبّ نميت من نحبّ! والدليل بين يديك!

هتمل «بسّا» وهو يغالب حمّى:

ـ الدليل؟

ـ أليس الجثمان المسجّى بين يديك دليلاً؟ أليس أسير ظلمات الدهليز جثماناً أيضاً ينتظر هلاكاً أرحم من حياة؟

زفرت بإعياء ثم أضافت:

ـ أنت لا تدري أني دفنت قلبي إلى الأبد يوم قررت تسليم أمري لرسول الدنيا برغم يقيني بصواب القرار، وكنتَ ستكبر فديتي أكثر لو علمتَ علم اليقين أن المرأة قلب أوّلاً وأخيراً، فإذا ضحّت بالقلب في سبيل إعلاء شأن المعشوق فإنها قد منحت آخر ما حقَّ للمخلوق أن يملكه في هذه الدنيا، ولو لم أفعل لما رأيتك الآن كما حلمت يوماً أن أراك: مصاباً بذلك المسّ الذي لا يليق إلا بالمعبود، في سيمائك الأشعار التي لا تعشق الحسان رجلاً لم يقرأنها في وجهه، في عينيك شرر الأبطال ممزوجةً بِحِلْم من حقّق غلبة ستتحدّث بسيرتها شاعرات القبائل في ملاحم البطولات التي ستتناقلها الأجيال تلو الأجيال. . .

سكتت. سكنت. أغمضت عينيها النجلاوين كأنها تغالب إجهاشة بكاء. أردفت بنبرة خنقتها العبرة:

ـ رأيتك اليوم جميلاً كما رأيتك دائماً، وكما حلُمتُ أن أراك إلى الأبد!

كان صاحب الغلبة يقف في حضرتها وهو يرتعد ويطأطىء ولا يعرف ما يفعل بيديه ولا بنفسه. ويبدو أنها رحلت بعيداً فلم تلحظ البلبال الذي استولى على معشوق الأبد. أضافت وهي تسرح بعيداً في بُعدها المفقود:

ـ لا يستحي الرجل من أن يدّعي أن المرأة تهِبُ نفسها لعبدٍ لأنّه وهبها وقته، ولا تواتي أمّة الرجال الشجاعة كي يعترفوا أن المرأة لا تفعل ذلك إلا لكي تجير الحميم الذي أحبّت، لأنها تعلم أنها إذا كانت تستطيع أن تنال الرجل في المخدع، فإن الرجل لا يستطيع أن ينالها إلا في الموت. هذا يعني أن عبدك المملوك الذي خذلك لم اختره بديلاً عنك إلا ليكون لك التميمة التي أجارتك من الموت!

في البُعد، جهة زحام الأبنية، تعالت صيحات النصر. في سماء الواحة ما لبثت أن ارتفعت زغرودة شجيّة ابتهاجاً بهيمنة الخلاص.

لحظتها تشجّع «بسّا» ليقترب من المعبودة خطوة. همس بهيئة طفل ينتظر قصاصاً على إثم:

ـ هل يضيركِ أن تسمعي مني اعترافاً؟

تنزّلت من علياء استكبارها ليفتر ثغرها عن ظلّ بسمة. نطقت بعبارة مجبولة بنصيبٍ يسيرٍ من تهكّم:

ـ هل يستطيع صاحب غلبة أن يدلي باعترافٍ لامرأة دون أن ينزع عن وجهه قناع الغلبة؟

ابتسم أيضاً، ولكنه وجد في نفسه الشجاعة كي يدلي باعترافه:

ـ اعلمي إذاً أنّي لم أكن لأختار العودة من أرباع الحمادة الغربية يوماً لولا طمعي في أن يقع بصري على طلعتك ولو عن بُعْد!

توضّحته في ضوء النار بفضول قبل أن تقول:

ـ لا تقل لي أنك إنما جمعت الأموال، وضحّيتَ بما هو أنفس من الأموال، لغاية واحدة هي أن تراني!

لم ينبس فأضافت:

ـ إذا كان ما تقوله صحيحاً فإنّك حميم القدر الذي لم يحقق له حُلُم التطلّع إلى الحبيب فقط، ولكنه وضع الحبيب مِلْك يمينه!

في سيماء صاحب الغلبة طافت سحابة كآبة. تكلّم بنبرة الهمّ المجدولة بالغموض:

ـ هيهات! أنت اليوم أبعد منالاً من أي يومٍ مضى!

27

ـ إيّاك أن تتخذ من عبدك صديقاً حتى إذا جاع باعك بكتلة تمر!

تلك كانت أوّل عبارة خاطب بها صاحب الغلبة أسيره الذي خلع عليه يوماً لقب البعبع. فقد جاء به العسس في صباح اليوم التالي مصفّداً في حبال المسد ليشدّوه إلى شجرة نخيل في طرف البستان حيث خيّم «بسّا» ليتولّى أمر الواحة من هناك. حوله دبَّ الجند والفرسان والأعوان القدماء في قوافل التجارة. في الواجهة تربّع البعبع بجثته الماردة، وعمامته المهيبة المتوّجة بتعويذة مجهولة مدسوسة في طوق فضّي مثلث الأركان. في عينيه تلامع المسّ المجدوح بالبلبلة والضياع.

أضاف صاحب الغلبة:

ـ هذه هي الوصيّة التي خالفتُها فدفعت الثمن غالياً!

حدّق بعدها في عينيه مليّاً، ثم واصل بصوت يختنق:

ـ لقد أحببتك كما لم أحبّ أحداً. أنت لا تعلم أنّي أحببتك كما لم أحبّ أبي وأمي، فلماذا غدرت بي؟

غمغم الأسير بأصوات مجهولة. ترنّح ببدنه كأنه يبذل جهداً للنطق بجملة مفهومة. وعندما أعجزته العبارة أغمض عينيه حتّى فزّ منهما الدمع، فتولى صاحب الغلبة عنه الأمر بالإنابة:

ـ أعرف أنك تريد أن تقول أن الجوع في رحلة عودتنا من ربوع «آير» كان أقوى من أن يُحتمل. ولكنّي ربّما غفرتُ لك ضعفك المهين ذاك لو لم تتكرّر خيانتك ثلاث مرّات كأنّك تصرّ، برقم الأسحار هذا، أن تقول أن الخيانة أيضاً عمل مقدّس يطلب التّثْفِيَة ليفوز بإكبار معبودة التثليث «تانيت»!

أطلق الأسير جعجعة مكتومة كأنّها الصرخة، ثم جاهد للإفلات من حبل المسد، فعاد صاحب الغلبة إلى الإنابة:

ـ أعرف أن عارك أقبح من كل عبارة، ولكني أردت أن أستعيد السيرة اليوم لا لأذكّرك بخطاياك نحو سيّد اتخذك حميماً، ولكن لأفهم الدافع الذي جعلك تجرّدني من كنزٍ تعرف أني راهنت عليه لتحرير رقبتي من أسر القبيلة التي بعتني إلى رجالها مقابل لقمة. فقد اكتشفتُ ذلك البئر الطافح بأحلى المياه في «تاسيلي» زمن طلب الكنوز التي لا تُقدّر بثمن، ثم ارتكبتُ خطأً قاتلاً يوم دللتك على موقع البئر، لأني لم أتخيّل أن يوماً

سيجيء احتاج فيه لفدية البئر، فيأتي حميم الزمان الوحيد ليبيعه إلى القبيلة ذاتها في اليوم الذي باعني فيه ذاته، ليبرهن على سوء النيّة التي رهن بمقتضاها رقبتي في يد قبيلة الأغراب، لأصير بذلك عبداً مملوكاً، في حين ينقلب هو، بثمن البئر، سيّداً يمتلك القوافل والأموال التي مكّنته من شراء ذمم أولئك البلهاء الذين يحسبون أنفسهم عقلاء في واحة «تيرا» حتى ينال عونهم في الاستيلاء على عرش المغدور مزّار، ويتسلّل إلى مخدعه ليستولي على امرأته أيضاً بحلاوة البيان كما استولى على عرش رجلها بخبث النوايا، ليبدأ بعدها ارتكاب الكبائر لا لشيء إلا لأنّ الحظوظ ابتسمت له، ولا يدري أن ما تأتي به عجاجة الحظوظ تذهب به عجاجة الحظوظ أيضاً، وإليك الدليل!

توجّع الأسير بأنينٍ أليم قبل أن يتوثّب محاولاً الإفلات من غُلِّه، ولكن قواه خذلته فغزت عينيه دفقة غمرت مقلتيه بالدّم، فتكلّم «بسّا»:

ـ لم يعد القول ليعنيني أو يعنيك، لأن أفعالك الجنونيّة في هذه الواحة الآمنة هي التي تتحدّث اليوم بالإنابة عنك. فما جدوى الاستجواب؟

لحظتها تقدّم من صاحب الغلبة الفارس النحيل المهضوم الجوف كأنه قائد ملّة النمل ليهمس في أذنه بعبارة لم يسمعها أحد، سكت بعدها «بسّا» طويلاً قبل أن يوجّه خطابه للأسير:

ـ بلغني أنّك تتصنّع البكم في حيلة جديدة للإفلات من العقاب، ولكن هيهات!

توثّب البعبع من جديد، ولكن محاولته الإفلات باءت بالفشل أيضاً.

خاطبه «بسّا»:

ـ لقد قيل لي أنّك بترت أصابعك الثلاثة أيضاً أسوةً برعاياك لا لتفقد الذاكرة أو العقل المتمثّل في رسوله اللسان أو عضو الرجولة كما فعلت بمريديك الممسوسين والأبرياء الأشقياء، ولكن لتذرّ الرماد في العيون، لأن كفّك المنقوعة في بطن الميّت أربعين يوماً والتي لا يعلم بحقيقتها سواي سرعان ما هرعت لنجدتك فأنبتت لك أصابع بديلة للأصابع المفقودة في أربعين يوماً أيضاً، والدليل هو يدك التي أراها أمامي الآن!

دمدم صدر صاحب الغلبة بضحكة مكتومة قبل أن يضيف:

ـ ها أنت الآن تعضّ بنان الندم لأنك بُحْتَ لي بسرّك، تماماً كما عضضتُ أنا بنان الندم بالأمس لأني كشفتُ لك عن سرّي بشأن موقع الكنز!

أطلق الأسير صوتاً قبيحاً كخوار التيس وهو يُنحر، ولكن صاحب راية النصر لم يرحمه:

ـ لن أفعل بك الآن إلا ما أردت أن تفعله أنت بنفسك بالأمس القريب لا تلبيةً لوصيّة أبي الثانية التي تقول أن عليّ أن

أحرق عرق الجنون في رأسك بالنّار، ولكن لكي أبطل مفعول السحر في خدعتك وأصحّح الزور في بدعة العار التي وصمت بها رعاياك الأبرياء لتصيبهم بوباء أسوأ من الجذام في نظر الأمم!

عَوى الأسير بصوت منكر وترنّح كأنه يبدأ مناحةً، ولكن قرينه القديم لم يمهله. أومأ لأحد العسس ليهمس في أذنه قبل أن يوجّه خطابه إلى الأسير من جديد:

ـ لسنا بحاجة لاستعمال فنون السحر كي ننزل بك قصاص الإخصاء، أو شلّ العضلة الآثمة التي تحملها بين فكّيك، أو إصابتك بداء النسيان!

التفت إلى الأعوان ليصيح:

ـ رسموا صدغيه بأعواد الجنون كي يفقده قصاص «إيغايغان» الذاكرة! وأحرقوا عرق اللسان المدسوس في شعفة رأسه، واستلّوا خصيتيه سلاً ليفقد القدرة على إنجاب ذريّة الجنون من صلبه، لأن بهذا العقاب اعتاد الأجداد أن يقلبوا الإنسان دابّةً، بل جثّةً تدبّ على قدمين!

28

استراح «بسّا» في اليوم التاسع، وفي اليوم العاشر جمع العقلاء في العراء بعيداً عن حبوس الواحة ليخاطب الجمع قائلاً:

ـ لن يتولّى أمر «تيرا» بعد اليوم مجلس عقلاء لم يحكمهم عقال العقل، لأنهم لو كانوا يوماً عقلاء لما خانوا الأمانة التي استودعوا ليعقدوا حلفاً مع أوّل صاحب جنون مقابل حفنة تبر! لأن الحكم منذ الأزل كان السّعلاة التي يروق لها أن تمسخ مريديها مسخاً، وقد تميتهم موتاً، برغم أنها لا تستقيم إلاّ لتلك القلّة التي وجدت في نفسها الشجاعة كي تناصبها العداء بدل العشق!

ران على المحفل سكون عميق غذّته الصحراء بروحها التي لم تعترف يوماً بغير السكون لغةً. ولكن رجلاً مجلّلاً بالسواد من قمة الرأس إلى أخمص القدمين نهض في ركن الجمع ليتساءل:

ـ إذا كانت القلّة التي يتحدّث عنها مولانا قلّة في دنيا الصحراء الواسعة، فكيف نستطيع أن نخلقها في واحة لم تعرف في تاريخها ملّة غير عشّاق هذه السعلاة؟

توضّحه صاحب الغلبة بفضول قبل أن يجيب:

ـ واحتكم لم تعرف ملّة غير عشّاق السعلاة لخطيئة في عقل عقلائها إن لم أقل لجرثومة تجري في شريان دم كلّ أهلها!

همهم الجمع بصخب فانتظر «بسّا» حتى هدأت الجعجعة ليوضح:

ـ لقد تولّى أمر الواحات، لا واحة «تيرا» وحدها، ورثة الأسلاف الذين لم يكونوا يوماً سوى خدمهم أو مماليكهم، لأن ناموس السلف المهووس بالحرية هو الذي قضى بإعلان الحكم رجس من عمل لئيم الأجيال «وان تهيط» فكابروا وتعففوا وتنازلوا عنه لملل الأتباع ليقينهم بأن الخوض في أوحال المستنقع عمل من شأن الميدع، أو الإنسان الأصلح ليكون لصاحبه تقيّةً يستجير بها من الأعفان. ولكن خطيئة عبدة الناموس في إنكارهم لبعبع الزمان الذي قضت شريعته بأن يرث المُلْك من نُصِّب على المُلْك لا من ترفّع عن امتلاك المُلك، كما يرث الأرض من تمرّغ في أوحال الأرض لا من ترفّع عن أوحال الأرض. ولهذا كان على الأخلاف أن يجدوا أنفسهم عبيداً لعبيد الأسلاف في أرضٍ هي في الأصل حِكْر مملوك

لأجيال الأجداد. وسدّة الحكم الدنيئة (التي قُدّر للجميع أن يحترقوا بنارها شاءوا أم أبوا) هي جزء لا يتجزّأ من ميراث الأرض الذي وقع في أيدي السفلة بخطيئة الأوائل في فرارهم الخالد من عبودية الأرض وأصفاد المِلكيّة. لأن الزمان برهن بما لا يدع مجالاً للشكّ أن لا وجود لقصاصٍ في كلّ الدنيا أسوأ من قصاص الروح العبودية إذا سادت!

هنا عاد الرجل المجلّل بالسواد للجدل:

ـ كيف السبيل للعثور على الأصلح للحكم في ظلّ غياب أسيادٍ رفضوا يوماً أن يحكموا، وحضور مماليكٍ يفقدون عقولهم فيفسدوا إذا حكموا؟

عاد «بسّا» يتوضّحه مليّاً قبل أن يجيب:

ـ أصدقكم القول: إذا لم تفلحوا في العثور على حكيمٍ بينكم يكفيكم شرّ هذا القدر فإنّكم لن تضمنوا الوقوع في البلايا!

صاح صاحب السّواد:

ـ أين نستطيع أن نجد هذا الحكيم؟

ـ الحكماء في كل مكان. في «تيرا» أيضاً لن يُعدم وجود الحكماء!

سكت لحظة ثم أضاف:

ـ أوّل علامة في حقيقة الحكيم هي الزهد في تولّي أمر الناس!

حاجج الرجل:

ـ هل نجبر الحكيم على تولّي أمرنا؟

ساد الزحام هرج. أجاب صاحب الغلبة:

ـ إجبار الحكيم على قبول تولّي أمركم بقبول شروط الحكيم!

ـ وكيف يرى مولانا الجليل شروط الحكيم؟

عاد الهرج يعمّ المحفل. انتظر «بسّا» حتّى هدأ الصخب ليجيب:

ـ ليس عليكم أن تخشوا شروط الحكيم بقدر ما عليكم أن تخافوا الشروط التي تغلي في قلب كل عضوٍ في محفلكم لتفرضوها شروطاً على الحكيم!

سكن المحفل. هيمن الصمت لحظات قبل أن يعود الرجل الغامض، النحيل، المجلّل بالسواد كأنه الغربيب إلى جدله:

ـ هل لمولانا أن يكمل إحسانه فيشير لنا على حكيم؟

تبسّم «بسّا». في الواجهة التهمته الأحداق الطافحة بالفضول واللهفة والانتظار. أجاب:

ـ لن أفعل!

حاجج رجل السواد:

ـ هل يبخل علينا رسول الإحسان بالرؤيا وهو الذي لم يبخل علينا بالفداء يوم حرّرنا من كابوس البعبع؟

ـ لن أفعل ليقيني بأن في الخيار تكمن الحرية، كما تكمن في الاختيار المسؤولية أيضاً!

سكت الرجل لحظات، ولكنه عاد للمساءلة من جديد:

ـ افترض أنّنا أخفقنا في العثور على الحكيم..

ـ لن يبقى لكم آنئذٍ إلاّ اللجوء إلى القرعة!

ـ القرعة؟

سكت «بسّا». تأمّل عمائم الوجهاء مليّاً كأنّه يفتّش عن إيماء الحكمة في أحداقهم، ثم أعلن:

ـ القرعة تعني أن تختاروا أوّل عابر سبيل ينزل الواحة في فجر مطلع الشهر، لا غسق مطلع الشهر!

استولى على أعضاء المحفل هرج جديد. تركهم «بسّا» لصخبهم قبل أن يسمع من فم غريبب الثياب سؤالاً آخر:

ـ أيعقل أن نترك زمام أمرنا لعابر مجهول؟

ـ أنتم من شاء الاحتكام إلى معبود الحظوظ!

استنكر رسول المجهول القابع في الركن:

ـ ها أنت، يا مولانا، تعترف بأن هذه الحيلة ما هي إلاّ وضع للرقاب في قبضة معبود الحظوظ!

قهقه أحد العقلاء بضحكة عالية، ولكنه ابتلعها عندما لم يستجب لضحكته أحد. قال «بسّا»:

ـ في اختيار عابر السبيل يكمن اختيار لمشيئة القدر أيضاً وليس تحكيماً لسلطان الحظوظ. ومشيئة القدر، كما تعلمون، كثيراً ما كانت أرحم بالخليقة من مشيئة أبناء الخليقة! لقد قلت «عابر سبيل»، ولم أقل أن عليكم أن تختاروا عائداً من رحلة، أو من مرعى، أو زائراً، أو صاحب قافلة تجارية، لأن عابر السبيل وحده الغريب الذي يقول الناموس أنه يحمل في أعطافه دوماً تميمة نفيسة اسمها الحريّة. وصاحب الحريّة مريد نبوءة الذي لن يخذلكم حتى لو رآه بعضكم أبلهاً أو حتى مجنوناً!

تململ بعض أعضاء المحفل، ولكنهم تشبّثوا بالصمت، فأضاف رسول السماوات السبع:

ـ إذا وقع خياركم على رسول الحريّة هذا فاقبلوا شروطه إذا وضع شروطاً على أن يقبل منكم شرطاً واحداً لا أكثر!

سكت رسول الخلاص طويلاً فتململ صاحب السواد ليتساءل:

ـ هل لنا أن نعلم شيئاً عن هوية الشرط الذي يريد مولانا أن نضعه قيداً في رقبة رسول السبيل؟

فرّ «بسّا» ببصره إلى الفدفد الهارب إلى الأبد إلى أن تواصل في قوس أفقٍ بدأ يغزو السراب. من هناك، في البرزخ الفاصل

بين القطبين الصحراويين العاريين أبداً (الأرض والسماء) عاد المريد بالنبوءة:

ـ أن يقبل بأن تحكموا حول سبّابته الرّتيمة التي ستذكّره بفحوى الشرط المتمثّل في ثالوث تقول أوّل أثفية فيه أن ليس عليه أن ينسى أنه ضيف، وتقول الأثفية الثانية أن ليس عليه أن ينسى أنه اختير ليتولّى أمر الناس عاماً واحداً لا أكثر..

سكت صاحب الغلبة. سكت طويلاً وهو يطارد فلول السراب السارحة في الأفق، فلم يطق المحفل صبراً، كما لم يُطِعهُ صاحب السواد الذي سأل:

ـ هل يأذن مولانا بإرواء ظمأ فضولنا فيخبرنا بفحوى الحجر الثالث في ثالوث الأثفية؟

لحظتها تنازل المهاجر عن عرشه في الآفاق ليلقي إلى القوم بكلمته الأخيرة في البلاغ:

ـ الركن الثالث في ثالوث الإثفية التي على الرتيمة في السبّابة أن تلهج به في أذن عابر السبيل إذا قبل الوصاية على الناس هي..

سحب «بسّا» نفساً عميقاً كأنّه تخلّص من وزرٍ ثقيل قبل أن يقول:

ـ أن يتذكّر أنه إنسانٌ فانٍ، وليس معبوداً خالداً!

29

في العشيّ قبيل الغروب ارتدى «بسّا» أَبْهَى لباسه وأخبر رجاله أنه ذاهب للنزهة في طريق الحقول. في السبيل ساءَل السابلة أين يمكنه أن يعثر على الأبله. أوّلهم ابتسم ثم تطلّع إلى يده المعطوبة قبل أن يمضي في سبيله دون أن يجيب. ثاني السابلة لوّح بيده في الهواء بضيق وانطلق كأنّه يفرّ من وباء. أما الثالث فتأمّله بفضول قبل أن يجيب بأنه رأى الأبله يلج الدغل المؤدّي إلى الحقول منذ ساعة.

سار «بسّا» نحو الدغل. اجتاز قنوات المياه التي تدفّقت بالسلسبيل من جديد بعد العقم الطويل الذي أَلَمَّ بالنبع بعد أن نبشه البعبع بفؤوس الجشع طمعاً في المزيد. ولكن النّبع شفى من علّته أخيراً بعد عودة الروح إلى «تيرا» يوم تخلّصت من الكابوس الذي جثم على صدرها كل هذا الأمد الموجع.

قطع مسافة أخرى عَبْر حقولٍ تتخلّلها أحراش النخيل. السبيل أفضى إلى سور آخر شيدته صفوف الأشجار ليكوّن حول

الحقول طوقاً يفصلها عن العراء حيث ترقد البحيرة: كانت قد استبدلت سيماءها، ولبست أثواباً في لون الطين بعد أن فقدت زرقتها القديمة بفعل الإهمال والنّبش وهتك السّتر الذي تعرّضت له على يد أعوان صاحب الزور.

تحت شجرة تشرف على البحيرة الضحلة أبصر شبحاً يجثم في الظلّ ميمّماً صوب السبسب الذي يحتضن البحيرة، ولكنه ينطلق ليتوالد حتّى يتبدّد في الأفق المتوّج بالمعبود في لحظة اغترابه المجبولة بالقداسة: ذلك لن يكون غير الأبله!

وقف فوق رأسه طويلاً. تنحنح ليلفت انتباهه لحضوره، ولكن الشبح لم يلتفت، ولم يأبه. جلس إلى جواره وتأمّل الأفق أيضاً. قال بعد صمتٍ دام طويلاً:

ـ أليس مفارقة أن يدعوك الناس باسم الأبله اليوم بعد أن كانوا يلقّبونك باسم البعبع بالأمس؟

لم يجب بعبع الأمس الذي يقبع في بدن أبله اليوم فأضاف الجليس:

ـ ولكنّي لو كنت مكانك وخُيِّرت لفضلت اسم الأبله على لقب البعبع!

في سيماء الرجل لاح إيماء كبسمة سخرية، ولكنه انشقع في ومضة ليُستنزل القناع على السحنة من جديد: هل هو غياب؟ هل هو ضياع؟ هل هو وجع؟ هل هو خيبة أمل؟ أم أنه مزيج من هذه السمات كلّها؟

تأمّله «بسّا» طويلاً قبل أن يقول:

ـ يؤسفني أن يوجعك الترياق، ولكن عزائي في أنه ذهب بجنونك كما شتّت أوهامك!

تطلّع إليه الأبله لأوّل مرّة. تأمّله زمناً. ثم عاد يترنّح مسلّماً زمام أمره لأفق الغرب المتوّج بأعجوبة الغروب.

قال «بسّا»:

ـ حرق العرق الدسّاس الذي ورثته عن أسلافك أعادك إلى رشدك، برغم يقيني بأنّك تحلم الآن بالعودة بعبعاً لليلة واحدة مقابل أن يُقطع رأسك في اليوم التالي!

خُيّل لـ «بسّا» أن إيقاع حركة جرم الرجل تضاعفت فقرّر أن يمازح قليلاً:

ـ هل تدري بماذا تذكّرني جلستك هذه؟

أطلق ضحكة مقتضبة ثم أضاف:

ـ في الليلة التي ذهبنا فيها لمعابثة الحسان في وادي «أميهرو» وتسللتُ إلى خباء اللعوب «تاني» وجلست أنت في الخارج لتحرس الخباء من فضول الفضوليين. ولكن أمّها الحيزبون اكتشفت غزوتنا فأخذت عموداً وانطلقت ورائي، ولكني اختبأت في زاوية الخباء فرأتكَ تتربّع كروحٍ شرّيرة في جلسة مكابرة مثيلة لجلستك الآن فنزلت بالعمود على رأسك!

هأهأ الزائر بضحكة مكتومة، ولكنه قطعها ما أن لاحظ بللاً في مقلتي جليسه كأنه حبّات اللؤلؤ.

اعترف «بسّا»:

ـ لقد كنتَ لي روحاً أنا جسدها، ولا أصدّق حتى الآن أنك خنتَ ثقتي فيك!

سكت أيضاً. انطلق أيضاً. عَبَر البحيرة ليتلقّفه معشوقه الخالد:

الخلاء الأبدي عندما يتحوّل سبسباً. الخلاء الخالد عندما يتوالد ليصير فدفداً. الخلاء الخالد عندما ينفي كل شيء (بما في ذلك المعشوق، بل بما في ذلك نفسه) لينقلب حريّةً. قال:

ـ وفائي لروحي التي فقدتها بفقدك منعني من تدنيس مخدعك إكباراً لذكرى رفقتنا، برغم.. برغم أن هذا لم يكن سبب قرباني الوحيد.

اختلس إلى الجليس نظرة، وعندما وجده محصّناً بقناعه المهيب أضاف:

ـ تنازلتُ بالأمس عن أنفس ما فِيَّ على الإطلاق، تنازلت عن روحي الثانية التي صارت روحي الأولى منذ فقدتك، لا لشيء إلاّ لأني وجدتها في متناول اليد. أعني لأني نلتها فقررت أن أهبها ليقيني بأن ما نناله نفقده، ولا ننال حقّاً إلاّ ما نفقد. لا ننال حقّاً إلا ما نقدّمه على سبيل التقرّب إلى المعبود. هل تفهمني؟ ما نناله ملكيّة، ولكن ما نهبه على سبيل القربان حرية!

ساد سكون. في البريّة سرحت فيوضاً سخيّة جاد بها المعبود في زمن النزع الأخير. فوق البحيرة حلّق طائر مهاجر وحيد.

هتمل «بسّا»:

ـ أنت حميمي الذي فرّ منّي يوماً فعقدت العزم في ساعة يأس أن أستردّه حتى لو كلّفني ذلك فقدان هذا البدن الخاوي بعد أن فقد الروح!

في مقلة الجليس لمح ظلا لوميضٍ كالفضول فأضاف:

ـ سأستردّه نقيّاً كما أردته لا كما فقدته، لأن حرق العرق الدسّاس بالنار ترياق اعترفت له القبائل بالمفعول. هل تدري؟

تأمّل الطائر المهاجر وهو يحوّم فوق البحيرة بجناحيه الكبيرين الناصعين كأنه يترصّد من عليائه أسماك الماء، أو ربّما ديدان الشاطىء.

اختلس نحو الجليس نظرة حَيِيّة كأنّها اعتذار قبل أن يوشوش:

ـ ها أنت تسمع منّي اعترافاً حاولت أن أخفيه حتى على نفسي طوال محنة ميلادي الثاني في ربوع الحمادة الغربية لتعلم أخيراً أني لم أقبل عليك لتزجية الوقت، ولكني جئتك لأكفّر عن خطيئة..

عاد إيماء الفضول يلتمع في مقلة الأبله. ترصّده قليلاً ثم أضاف:

ـ فما ضرّك لو تنازلتَ عن كبرياء الزور وقبلتَ دعوتي في رفقة أنا على يقين أنها ستكون لك بمثابة الجرعة الأخيرة في ترياق الشفاء من داء السنين؟

تنازل الطائر المجهول عن عليائه ليحلّق فوق البحيرة على ارتفاع خفيض عابراً امتداد البحيرة نحو الشمال. ولكنه انحرف في طيرانه المدهش ما أن جاور مجلسهما فطار فوق رأسيهما على الضفّة الأخرى دون أن يحرّك جناحيه فتبدّى في طيرانه كأنّه يسبح في الهواء سباحةً. قبل أن يعبرهما استطاع «بسّا» أن يتبيّن منقاره الأحمر الطويل، ومقلتيه السوداوين الجريئتين فتساءل عما إذا كان من فصيلة اللقالق أم الغرانيق أم مالك الحزين. اجتاز الطائر إلى الناحية الأخرى حيث تتكاثف الأشجار لتجير زروع الحقول من غزوات رياح الجنوب، فعاد لمحاورة الجليس:

ـ أَعِدُكَ أنّنا لن نهدر الوقت في مداعبة الصبايا في وديان «تاسيلي» كما فعلنا زمن الطيش، كما أننا لن نذهب لإضاعة الوقت بالاشتراك في مسابقات الفروسية في «تارات» كما اعتدنا أن نفعل في مواسم فكّ التحريم عن المراعي، ولكننا سنرتاد أرضاً أخرى استطلعتها في السنوات الماضية بالنيابة عنك..

التفت الأبله نحوه بحدّة مفاجئة. في مقلته لمع إيماء كالاستفهام، أو ربّما كالشّكّ، ولكنه أشاح ببصره ليسرح في فَدْفَد الأبد المغمور بنزيف الغروب.

في تلك اللحظة نقل السكون لسمع «بسّا» نداءاً بعيداً كأنه رسالة من المجهول: تدفّق لحن الشجن في البداية نئيماً مكتوماً بغصّة حنين كانت دوماً سليقة في أنساق الأوائل المجبولة بالتحريم والمسّ والاغتراب. ولكن اللحن تحرّر من غموضه ليستعير اليقين في صوت اللمّة النسائية التي استباحت سكون الغروب بالأبيات الأولى في الأغنية البكر. فهل يُعقل أن تكون الشاعرة قد أوفت بالوعد الذي قطعته على نفسها وأنجزت مستهلّ الملحمة عن تحرير «تيرا» قبل الأوان؟

اكتملت في الأفق مراسم الغروب فتسلّل الغيهب ليحجب امتداد الرّهاء بستور الشّفّ. اعتدل «بسّا» في جلسته ليخرج من جيبه صرّة جلديّة مخضّبة بلونٍ قان كالدمّ موسومةً برموز غامضة كطلاسم أهل الأسحار في اللحظة التي وقع فيها بصره على الطائر المجهول يطير فوق البحيرة على ارتفاع خفيض جدّاً ليجابهه مجابهةً محدّقاً فيه بمقلتين سوداوين رآهما في عتمة المساء كبيرتين ومعبّرتين كأنهما محمّلتان برسالة مجهولة. توضّحه مستلباً ومزموماً ممسكاً بالصرّة الجلدية كأنها تعويذة دون أن يفارق ببصره الإيماء في مقلة الطائر التي لم تعد تشبه مقلة طائر. جمد في غيبة منتظراً أن يصطدم به الطائر الجابه. الطائر الذي ينوي أن يلتحم به أو يتماهى به، أو يختطفه ليطير به إلى أوطان المجهول التي أتى منها، يختطفه ليعيده إلى

السماوات السبع التي أتى منها. ألم يقل له الفقيد مزّار أنه رسول السماوات السبع؟ أيكون الطائر الوحيد، المهاجر، المجهول، رسول السماوات السّبع المخوّل (كما تقول وصايا الناموس الضائع) باسترداد الأبناء الذين اغتربوا وإعادتهم إلى رحاب الوطن المفقود؟

سقط إلى الوراء في اللحظة التي أدركه فيها الطائر فأغمض عينيه. أغمض عينيه وتلقّى في وجهه هبّة هواء من جناحيه. تراجع إلى الوراء، ولكنه لم يفتح جفنيه إلا بعد أن سمع نداء أطلقه الطائر كأنه نعيب غراب، أو. . أو إجهاشة طفل في نوبة بكاء. فهل هذا هو «أبيل بيل» الذي يتحدّث عنه الأسلاف فيقولون أنه لا يقبل إلاّ وحيداً، ولا يهاجر إلا وحيداً، ولا يحلّ في أرض إلاّ تنفيذاً لوصيّة؟

اختفى الطائر، ولكن صوت الأنشودة في حناجر الصبايا تمادى واستقام وطغى. الواحة الآن تحولت كلّها أذناً هائلة صاغية. فهل يسمع الأبله أيضاً شهادة خلاصه من مسّه الذي ستنقله أغنية الليلة رسالة ستردّدها الأجيال؟

لم ييأس في محاورة الرجل. لوّح في وجهه بالصرّة الجلدية ليقول:

ـ يكفي أن تتناول معي حفنة من هذا العقار. .

اختلس نحو الجليس نظرة فوجده يترنّح كأنّ اللحن الذي

استولى على الأرجاء مسّ فيه وتر الوجْد. مال نحوه حتى كاد يلامس طرف لثامه. همس:

ـ مفعول العقار شبيه بمفعول تلك العشبة التي تناولناها مرّة قبل أن نعرف أنها «آفلاهلاه» فيما بعد. هل تذكر؟ صدقني أن لا شفاء من علّتك إلاّ بترياق هذا العُقار!

أغنية الحنين استباحت سكون المساء. في مكانٍ مّا من فضاء الجهة الجنوبية حيث اختفى الطائر علا النداء الموحش المثيل لإجهاشة طفل يوشك أن ينخرط في البكاء. أما من جهة الغرب فقد زحفت ظلمات لم يُكتب لها أن تنجلي إلا في صباح اليوم التالي عندما أطلّ القبس البكر ليكشف للملأ عن جسدين راقدين على رمل يجاور البحيرة، يتوسّدان ذراعيهما متجاورين ومتواجهين كأنّهما فرغا للتوّ من مناجاة مجهولة، في مقلتيهما استقرّت بسمة غامضة، وإيماء آخر مريب كأنه فوز بطوليّ بغنيمة نفيسة، أو حُلُم حميم سارا إليه طويلاً طويلاً ولم يُقدَّر لهما أن يدركاه إلاّ أخيراً!

سالو (سواحل الجنوب الإسباني)

غولديفيل (أرياف الألب السويسري)

يوليو ـ أغسطس 2009 م

مُؤلَّفاتُ إبراهيم الكوني

1 ـ الصلاة خارج نطاق الأوقات الخمسة (قصص) 1974م.

2 ـ جرعة من دم (قصص) 1983م.

3 ـ شجرة الرتم (قصص)1986م.

ـ رباعية الخسوف 1989م.

4 ـ البئر (رواية)..

5 ـ الواحة (رواية).

6 ـ أخبار الطوفان الثاني (رواية).

7 ـ نداء الوقواق (رواية).

8 ـ التبر (رواية) 1990م.

9 ـ نزيف الحجر (رواية) 1990م.

10 ـ القفص (قصص) 1990م.

11 ـ المجوس (رواية) الجزء الأول 1990م.

12 ـ المجوس (رواية) الجزء الثاني 1991م.

13 ـ ديوان النثر البري (قصص) 1991م.

14 ـ وطن الرؤى السماوية (قصص) 1991م.

15 ـ الوقائع المفقودة من سيرة المجوس (قصص) 1992م.

16 ـ خريف الدرويش (رواية ـ قصص ـ أساطير) 1994م.

17 ـ الفم (رواية) 1994م.

18 ـ السحرة (رواية) الجزء الأول 1994م.

19 ـ السحرة (رواية) الجزء الثاني 1995م.

20 ـ فتنة الزؤان (رواية) 1995م.

21 ـ برّ الخيتعور (رواية) 1997م.

22 ـ واو الصغرى (رواية) 1997م.

23 ـ عشب الليل (رواية) 1997م.

24 ـ الدمية (رواية) 1998م.

25 ـ صحرائي الكبرى (نصوص) 1998م.

26 ـ الفزاعة (رواية) 1998م.

27 ـ الناموس (الجزء الأول) 1998م.

28 ـ في طلب الناموس المفقود (الجزء الثاني من الناموس) 1999م.

29 ـ سأسِرُّ بأمري لخلاّني الفصول (ملحمة روائية)، الجزء الأول، الشرخ، 1999م.

30 ـ أمثال الزمان (الجزء الثالث من الناموس) 1999م.

31 ـ سأسرُّ بأمري لخلاني الفصول (ملحمة روائية)، الجزء الثاني، البلبال، 1999م.

32 ـ سأسرُّ بأمري لخلاني الفصول (ملحمة روائية)، الجزء الثالث، برق الخُلَّب، 1999م.

33 ـ وصايا الزمان 1999م.

34 ـ نصوص الخلق 1999م.

35 ـ ديوان البر والبحر (نصوص) 1999م.

36 ـ الدنيا أيام ثلاثة(رواية) 2000م.

37 ـ نزيف الروح (نصوص) 2000م.

38 ـ أبيات (نصوص) 2000م.

39 ـ بيت في الدنيا وبيت في الحنين (رواية) 2000م.

40 ـ رسالة الروح.

41 ـ بيان في لغة اللاهوت (موسوعة البيان) جزء 1 أوطان الأرباب 2001م.

42 ـ بيان في لغة اللاهوت (موسوعة البيان) جزء 2 أوطان الأرباب 2001م.

43 ـ بيان في لغة اللاهوت (موسوعة البيان) جزء 3 أوطان الأرباب 2001م.

44 ـ بيان في لغة اللاهوت (موسوعة البيان) جزء 4 (المقدمة في ناموس العقل البدئي).

45 ـ بيان في لغة اللاهوت (ملحمة المفاهيم) جزء 5.

46 ـ منازل الحقيقة 2003م.

47 ـ أسطورة حب إلى سويسرا 2003م.

48 ـ لحون في مديح مولانا الماء 2002م.

49 ـ البحث عن المكان الضائع (رواية) 2003م.

50 ـ أنوبيس (رواية) 2002م.

51 ـ الصحف الأولى (أساطير ومتون) 2004م.

52 ـ مراثي أوليس (رواية) 2004م.

53 ـ صحف إبراهيم (متون) 2005م.

54 ـ المحدود واللامحدود (متون) 2002م.

55 ـ ملحمة المفاهيم (موسوعة البيان) ج6، 2005م.

56 ـ ملكوت طفلة الربّ (رواية) 2005م.

57 ـ لون اللعنة (رواية) 2005م.

58 ـ هكذا تأملت الكاهنة ميم (متون) 2006م.

59 ـ ملحمة المفاهيم ج3، (موسوعة البيان) ج7، 2006م.

60 ـ نداء ما كان بعيداً (رواية) 2006م.

61 ـ في مكان نسكنه.. في زمانٍ يسكننا (رواية) 2006م.

62 ـ يعقوب وأبناؤه (رواية) 2007م.

63 ـ قابيل.. أين أخوك هابيل؟! (رواية) 2007م.

64 ـ الوَرَم (رواية) 2008م.

65 ـ يوسف بلا إخوته (رواية) 2008م.

66 ـ من أنت أيها الملاك؟ (رواية) 2009م.

67 ـ رسول السماوات السبع (رواية) 2009م.

مؤلفات إبراهيم الكوني النظرية

68 ـ نقد ندوة الفكر الثوري 1970م.

69 ـ ثورات الصحراء الكبرى 1970م.

70 ـ ملاحظات على جبين الغربة 1974م.

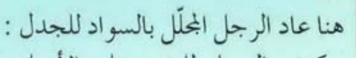
قيد الطبع

71 ـ وطني صحراءٌ كُبرى (متون).

72 ـ ثوبٌ لم يدنّسه سَمُّ الخياط (متون).

MESSENGER OF THE SEVEN HEAVENS







هنا عاد الرجل المجلّل بالسواد للجدل :

ـ كيف السبيل للعثور على الأصلح للحكم في ظلّ غياب أسيادٍ رفضوا يومًا أن يحكموا ، وحضور مماليك يفقدون عقولهم فيفسدون إذا حكموا ؟

عاد « بسّا » يستوضحه مليًّا قبل أن يجيب :

ـ أصدقكم القول : إذا لم تفلحوا في العثور على حكيم بينكم يكفيكم شرّ هذا القدر ، فإنّكم لن تضمنوا الوقوع في البلايا !

[......]

لحظتها تنازل المهاجر عن عرشه في الآفاق ليلقي إلى القوم بكلمته الأخيرة في البلاغ :

ـ الركن الثالث في ثالوث الإثفيّة الّتي على الرتيمة في السبّابة أن تلهج به في أذن عابر السبيل إذا قبل الوصاية على الناس ، هي ..

سحب « بسّا » نفسًا عميقًا كأنّه تخلّص من وزرٍ ثقيل قبل أن يقول :

ـ أن يتذكّر أنّه إنسانٌ فانٍ ، وليس معبودًا خالدًا !




ISBN 978-9953-36-347-1
9 789953 363479

